مغارة دانيال

محمد جمعة

اسم الكتـــاب : مغارة دانيال

التأليـــــــف : محمد جمعة

تصميم الغلاف : فارس إيهاب

تدقيق لغـــوي : تامر عبد الحليم

إخـــراج فنـــي : هيام فهيم

رقم الإيـــــداع : 2019 /27163

الترقيم الدولـي : 978-977-835-180-9

صادرة عن

زحمة كتّاب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع

Facebook : اسكرايب للنشر والتوزيع

Email : scribe20199@gmail.com

Tel : 002 01005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر ©

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

مغارة دانيال

محمد جمعة

إهداء

إلى روحِ أَبِي الغاليةِ

دُمْتَ لِي رفيقًا مَا حييتُ.

مقدمة

مما لا شكَّ فيه أنَّ الرواية ستظلُّ مقصدَ الكثيرِ مِنْ هواةِ الخيالِ والمغامراتِ، لِذَا يَسُرُّ دارَ "اسكرايب" أنْ تقدِّمَ لكم هذه الروايةَ للكاتب "محمد جمعة"، وهي مليئةٌ بالغموضِ، والإثارةِ، والخيالِ، ويحوطُها سِحْرُ مدينةِ الإسكندريَّةِ.

وأتمنَّى لكم قراءةً ممتعةً.

أ/ يوسف حسين

مدير دار "اسكرايب"

(١)

ليلةٌ مظلمةٌ، تخلو السماء مِن القمر، وينبعثُ مِن الشارع رائحةٌ عميقةُ تبدو، وكأنَّكَ تمُرُّ بين العصور، سِحْرُ الكُتُبِ يلتفُّ حَوْلَكَ بين الظلامِ، تتناثرُ عناوينُ الكُتُبِ في كُلِّ مكانٍ، السكونُ يملأُ الجدرانَ، ودفءُ المساجدِ يحيطُ بِكَ، ومعبدٌ يَهُودِيٌّ وكنيسةٌ عريقةٌ تُعْطِيكَ الأملُ في الحياةِ، أَنْتَ في حُضْنِ الأديانِ!!

كان هذا في الساعة ١١,٣٠مساء حَيْثُ يخلو الشارع حَتَّى مِن المارة إِلَّا حبيبتي كانتْ تمشي منتصف الطريق، أودِّعُها حَيْثُ تسكنُ بقُرْبِ شارعِ النَّبِيِّ "دانيال".

غفلتْ عيني أَمْ لا، لا أعرفُ حَيْثُ اختفتْ حبيبتي عَنْ عيني فجأةً؟!

*****

(٢)

يبدو اليومَ كأَمْسِ، لا أدري إِنْ كنتُ مدركَ الحياةِ أَمْ لا؟!، في غيبوبةٍ أنا، أسكنُ الفراشَ، أحاولُ الحركةَ، لا أستطيعُ؟!، أحاولُ ثانيةً، لا أقدرُ، كأَنِّي سجينُ الفراشِ؟!، حبيبتي تنتظرُني .. أريدُها.

أشيرُ بيَدِي إليها مِنْ بعيد، لا تراني، أنا هنا انتظرُها، ما بيننا لا أعرفُ ما يمنعُنِي بئرٌ .. زَمَنٌ ... لُغْزٌ ... ماذا يكونُ؟!

أشعرُ بأَنِّي لا أريدُ الاستيقاظَ مِنْ أحلامي!!، لا لا ... لا توقظُني، أريدُ أنْ أعيشَ!!

هُنَا مَسْكَنِي ومَلَاذِي، هُنَا مَحْيَايّ، وإِنْ كانَ ولا بُدَّ مَمَاتِي، رغمَ إِنِّي بداخلِ ذَلِكَ الحُلْمِ مشلولٌ لا أتحرَّكُ!!، أرى نَفْسِي أحيانًا مُلْقَى على فراشٍ مُقَيَّدِ الأَيْدِي والقَدَمِينِ، انتفضُ بكُلِّ قوةٍ، لا أستطيعُ فَكَّ كُلِّ تِلْكَ الأغلالِ، كُلُّ يدٍ مربوطةٌ على حِدَا بشيءٍ يشبهُ الكلبش!!

السريرُ الَّذِي أنا مُلْقَى عليه يشبهُ سريرَ المستشفياتِ، صُنِعَ مِنْ حديدٍ، كَيْ يتعبَكَ أكثرُ مِنْ كونِه يريحُكَ؟!، ومرتبةٌ متهلكةٌ تقسمُ ظهرَكَ نِصْفِينِ، ولَكَنْ لا أريدُ أَنْ أستيقظَ!!، أنا هُنَا أنتظرُها مهما كان الألمُ!!

الإسكندريةُ مِنْ أجملِ المدنِ المصريَّةِ، وكانتْ في الماضي عاصمةُ مِصْرَ، تأَسَّسَتْ في عامِ (٣٣٢) قَبْلَ الميلادِ على يدِ الإسكندرِ الأكبرِ، وذَلِكَ

مِنْ خلالِ ردمِ أجزاءِ الساحلِ في المنطقةِ الَّتِي تفصلُ بين قريةِ "راقودة" أو "راكوس"، ومَا بَيْنَ جزيرة "فاروس" الممتدةِ على الساحلِ الرَّئيسِي، وتحيطُها بحيرةُ "مريوط" والبحر الأبيض المتوسط.

ظَلَّتِ الإسكندريةُ عاصمةً لمِصْرَ في عَهْدِ الإسكندرِ وخلفائِهِ قرابةَ (١٠٠٠) عامٍ، إلى أَنْ جاءتِ الفتوحاتُ الإسلاميَّةِ على مِصْرَ في عامِ (٦٤١) م.

بالقُرْبِ مِن البحر توجدُ جامعة الاسكندرية بشارع "سواتر"، وداخل كلية الآداب قِسْم الآثار كان الدكتور في المحاضرةِ يشرحُ غموض طلاسم لا نستطيعُ لليومِ رغمَ التقدُّمِ وتطوُّرِ البحثِ العِلْمِي فَكَّ رموزها أو مُجَرَّدِ فهمِ دلائل شديدة الوضوح بخصوصِها.

كُلُّ شيءٍ يظهرُ بنِصْفِ حقيقةِ البحرِ، يبدُو أزرقٌ، والحقيقةُ لَيْسَتْ كذَلِكَ، رغمَ علمِنا أَنَّهُ مُجَرَّدُ انعكاسٍ، نستمتعُ بهَذَا المنظرِ الخادعِ للحقيقة.

النجومُ الَّتِي نراها تلمعُ بالليلِ، ونسهرُ على ضوئِها نجومٌ ميتةٌ مِنْ زمنٍ بعيدٍ، ولَكِنَّ سرعةَ الضوءِ تخادعُنا هي الأخرى!!

"أحمد" يستمعُ للدكتورِ في حالةِ انجذابٍ.

"فارس" يُنادِي عَلَيهِ:

-"لماذا أَنْتَ منتبهٌ جدًا مع الدكتور اليومَ؟!"

وهُوَ ما زَالَ يتابعُ كلام الدكتور:

-"زعمتْ مجموعةٌ مِن العلماءِ الصينيينَ أَنَّهم استطاعُوا التوصُّلَ إلى نظريةٍ تكشف غموض ما يُعْرَفُ بـ"كرة البرق" أو "الكرة المضيئة" الَّتِي تظهرُ في

السماءِ، ويَظُنُّ البعضَ أنَّها أجسامٌ طائرةٌ، وتظهرُ أثناءَ العواصفِ الرعدُ، وتَوَصَّلَ عَالِمٌ صِينِيّ إلى نظريةٍ جديدةٍ، يمكن أنْ تَحِلَّ لغزَ كيفيةِ قدرة تلك الأجسام على العبورِ مِنْ خلالِ الجدرانِ؟!!؛ حَيْثُ تصدرُ شررًا ما، تنبعثُ مِنْها رائحةٌ كريهةٌ، وهي بحجمِ حَبَّةِ الفاصوليا، ويصلُ قطرُها إلى مترٍ، ويمكنُ أنْ تتبدَّدُ تدريجيًا، أو تنفجرُ بصوتٍ عالٍ؟!

الأكثرُ غرابةً البعضُ شاهدَ تلك الكراتِ تَمُرُّ عَبْرَ الخشبِ، والزجاجِ، والمعادنِ، كما لَوْ أنَّهَا لَمْ تكنْ موجودةً؟! فهَلْ هَذَا سِحْرٌ أَمْ عِلْمٌ؟!"

يكرِّرُ "فارس" النداءَ على صديقِهِ، ولَكِنَّ هذه المَرَّةَ ينتبهُ.

يستفيقُ "أحمد"؛ ليَرُدَّ:

-"لا لا الموضوع غريب إلى حَدٍّ ما ؛ فكُلُّ شيءٍ يبدُو غير حقيقته، كأَنَّنَا ننظرُ إلى الأشياءِ بنِصْفِ عينٍ، أو نحتاجُ إلى أربع عيونٍ؛ كَيْ نراهَا صحيحةً؟!"

"فارس" يردف قائلًا:

-"واللهِ أَنْتَ منتبهٌ مع الدكتور، والبناتُ تنتظرُ على "الكافيه"، وأَنْتَ صمّمت اليومَ على حضورِ المحاضرةِ، وأيضًا تأخذُنِي مَعَكَ، وأنا لو أعلمُ أَنَّهُ سيتكلَّمُ في فيلمِ خيالٍ عِلْمِيّ؛ لَمْ أحضرْ، هيَّا يا أحمد انتهتِ المحاضرةُ"

يبتسم "أحمد"، وهو ينظرُ إلى "فارس":

-"عَنْدَكَ حَقّ؛ هيَّا بِنَا نتحرَّكُ؛ لأَنَّنا تأخرنا".

*****

(٣)

دخل "أحمد" البيت؛ ليجدَ أُمَّهُ تنتظرُهُ؛ لأنَّ الوقتَ تأخَّرَ؛ فالساعةُ تجاوزتِ الثانية عشر ونِصْفٍ مِنْ منتصفِ الليلِ:

-"أُمّي سَامحِيني، لم أقصدْ مضايقتَكِ، ولَكِنْ كنتُ أذاكرُ مع أصدقَائِي"

أُمُّهُ تنظرُ إليه في عتابٍ:

-"أَنْتَ في الفرقةِ الرابعةِ بالكليةِ؛ ولذَلكَ لَنْ ألومَكَ".

"أحمد" يعيش مع أُمِّهِ الَّتِي تبدُو لَهُ أنَّها قاسيةٌ؛ فهِيَ لا تتكلَّمُ معه كثيرًا كباقِي الأمهاتِ؛ حَتَّى بَعْدَ موتِ أبيها الَّذِي كانَ بالنسبةِ لها أَبٌّ وصديقٌ.

"أحمد" يدخل إلى غرفتِهِ، ويبدُو أنَّهُ شاردٌ، وهُوَ بالفعلِ يتحدَّثُ مع نَفْسِهِ:

-"حبيبتي لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يفهمَ مَدَى حُبِّي لَها، كُلُّ ليلةٍ أجلسُ معها لساعاتٍ طويلةٍ، نتسامرُ معًا، لا نَكِلُّ أبدًا؛ فهِيَ أطيبُ وأرقُّ مَنْ رأيتُ، ولا أُحِبُّ غيرَها مهما مَرَّتِ السِّنُونَ، هِيَ كطيفٍ رقيق، أَحْكِي لها كُلَّ ما حَدَثَ لِي طولَ النهارِ، وأخبرُها بأسرارِي، وهِيَ كعادتِها لا تبوحُ بما أقولُ لَهَا".

في صباحِ اليومِ التَّالِي كانتِ السماءُ صافيةً، والشمسُ مشرقةٌ تملأُ الأجواءَ بالحيويةِ، واللونُ الأزرقُ بالسماءِ يفتحُ شَرَايِينَ الحياةِ، السحابُ بلونِهِ الأبيضِ يشعرُكَ بالأملِ.

-"أنا أرى حبيبتي بين السماءِ والسحابِ، هي قمرٌ، بَلْ هي الشمسُ!!"
-"عندما كنتُ صغيرًا نظرتُ للسماءِ، وظننتُ أنَّها البحرُ، وعندما تمطرُ في الشتاءِ أقولُ: مَنْ قامَ بثقبِهِ حَتَى يمطرَنا!!، يا لَهَا مِنْ ذكرياتٍ!!"
-"تأخذُنا الأيامُ، ليتها تعودُ!!، ولَيْتَ حبيبتي هي الأخرى تعودُ!!"
-"كنتُ بانتظارِ "فارس" بمحطةِ الترامِ؛ لنذهبَ للجامعةِ"
هكذا حدَّثَ "أحمد" نَفْسَهُ.
أخيرًا أتى "فارس"؛ ليذهبَا للجامعةِ، لَكِنْ يبدُو على وجهِهِ الغضبُ:
-"ماذا بِكَ يا فارس تبدُو غاضبًا؟!"
-"لا يا أحمد لستُ غاضبًا"
ينظرُ "فارس" إلى "أحمد" في سكونٍ، ورُبَّمَا ينطقُ، وهُوَ لا يريدُ ذَلِكَ:
-"كنتُ أتناقشُ مَعَ أَبِي طوالَ الليلِ في أشياءٍ كثيرةٍ، وقَدْ سَهِرْنا؛ وهذا ما سَبَّبَ تَأَخُّرِي عَلَيكَ، والآنَ نسرعُ؛ حَتَّى لا نتأخرَ عَن المحاضرةِ الأولى".
في نهايةِ اليومِ الدِّرَاسِي طلب الدكتورُ "حمدي" إعدادَ فريقِ عملٍ يتكوَّنُ مِنْ أربعةِ طلابٍ؛ ليكوِّنُوا فريقَ بحثٍ في: (أثرِ الحضارةِ القديمةِ في تكوينِ الشخصيَّةِ المصريَّةِ الحديثةِ).
رفع "فارس" يَدَهُ؛ ليسمحَ له الدكتورُ "حمدي" بالكلام:
-"دكتور هَلْ لي أَنْ أسألَ لماذا الحضارةُ القديمةُ بالإسكندريَّةِ ليستْ كغيرِها مِن الحضاراتِ المصريَّةِ؛ حَيْثُ أَنَّ الحضارةَ الرومانيَّةَ واليونانيَّةَ مدينةُ الإسكندرِ الأكبرِ؛ فهَلْ لَهُ انطباعٌ خَاصٌّ على سكانِها؟".

يَرُدُّ الدكتورُ"حمدي"في ابتسامةٍ:

-"أكيد مِن المميَّزِ أَنْ تطرحَ هذا الموضوع مع فريقِ البحثِ، وإِنْ نجحتَ فيه، أشهدُ بأنَّكَ تستحقُ التقديرَ مِن الجامعةِ، ولَكِنْ يستحقُ البحث مِنْكَ المجهود أَنْتَ و زملاؤكَ في الفريق".

"حازم" و"خالد" مِنْ طُلَّابِ الفرقةِ الرابعةِ، وهُمَا أصدقاءُ، وقَدْ تحدَّثُوا كثيرًا؛ لَمَّا سمعُوا حوار "فارس" والدكتور"حمدي"؛ لذَلِكَ أسرعُوا بالوقوفِ بجانبِ بابِ الخروجِ في انتظار"فارس".

"أحمد" يخاطب "فارس":

-"لا أفهمُ، مَنْ أعطاكَ الحَقَّ؛ كَيْ تضعَ اسْمَي مَعَكَ مِنْ ضمنِ فريقِ البحثِ؟!"

"فارس" في لهجةٍ حانيةٍ:

-"نَحْنُ أصحابُ؛ لذَلِكَ لا أجدُ مشكلةً"

"أحمد" في غضبٍ:

-"الموضوعُ الَّذِي اخترتَهُ صعبٌ، وهذا واضحٌ مِنْ كلام الدكتور، وقد لا نجدُ كُتُبًا ولا مراجعَ!!"

"فارس" في ثقةٍ:

-"كُلُّ شيء موجود في مكتبة الاسكندرية، وغيرُ ذَلِكَ في شارعِ النَّبِيّ دانيال يوجدُ كُتُبٌ لا تُعَدُّ عَنْهُ؛ لَكِنْ نحتاجُ زَمِيلِينِ مِن الدفعةِ"

يضحك "أحمد" بصوتٍ عالٍ:

-"كُلُّ أصحابِنا ضحكُوا عَلِيكَ قَبْلِ خروجِنا مِن المحاضرةِ، وعلى "الفيس" يسخُرونَ مِنْكَ"

"فارس" يستكملُ حديثَهُ:

-"نبدأ أولًا، وبَعْدَ ذَلِكَ نكملُ الفريقَ، وأنا سأبدأُ البحثَ بمكتبةِ الإسكندريَّةِ".

يُرُدَّ "أحمد" في حماسٍ:

-"يمكنُني البحثُ عن كُتُبٍ بشارع النَّبِيّ دانيال".

*****

(٤)

أمطارٌ غزيرةٌ لم تنقطعْ مُنْذُ ثلاثةِ أيامٍ، الشوارعُ خاليةٌ، أمواجُ البحرِ قويَّةٌ وعاليةٌ، ترتطمُ بالشاطيءِ، لتعلُوَ في الهواءِ، تحدثُ نسيمًا رطبًا ينعشُ مَنْ يَشِمُّهُ، القمرُ بدرٌ، يبدُو على فتراتٍ مع بداية صفاء السماء مِن السحابِ.

لا مركبَ قد هَشَّمَهُ الموجُ، وألقى بِهِ في منتصف طريق الكورنيش، تتجَنَّبُهُ السياراتُ، والمارةُ بالطريقِ، وأنا جالس قُرْبَ الصخورِ بالأسفلِ، كُلُّ مَلَابِسِي ممتزجةٌ بماءِ البحرِ، والمطر، وبدا البردُ يضربُ بجَسَدِي، مع صفاء السماء وقِلَّةِ المطر لن تشعرَ أبدًا بي، لطالما لَمْ تجلسْ مَكَانَي.

ذكرياتٌ كثيرةٌ تَمُرُّ أَمَامِي، لا أستطيعُ مَنْعَها مِنْ أَنْ تجولَ بخَاطِرِي، أنا عاشقٌ لفتاةٍ لم أراها مُنْذُ سِنِينَ، مع ذلك ملامحُها تسكنُ قَلْبِي؛ بَلْ وعقلي لا يَرْضَى بغيرِها، أراها في بعضِ الأحيانِ في كُلِّ فتاةٍ تَمُرُّ بجواري؛ هَلْ جُنِنْتَ أَمْ أَنِّي عاشقٌ مِنْ زمنٍ قديمٍ؟!

أحاولُ دومًا أنْ أجمعَ تفاصيلَ تِلْكَ الليلةِ، ولا أستطيعُ، مشتاقٌ لآخرِ لحظاتٍ لنا سويًا، كَمْ ضحكنا مَعًا، ولعبنا في أجواءِ الشتاءِ!!، مِثْلُ تلك الأيامِ كُنْتِ لحنًا رقيقَ النغمِ ينشدُ ابتهاجًا وحياةً!!

يراودُنِي طيفُها، وأشعرُ بأنفاسِها، نتبادلُ النظراتِ، ونتخطَّفَ الحديثَ سويًا، تلمعُ عيونُنا فرحًا بِنَا، وترشفُ شفاهُنا الابتسامَ.

خطواتُها تعكسُ خُطُوَاتِي حِيْنَ أَمْشِي، أنظرُ لَها مبتسمًا، وأقولُ:
-"كَفّي، هَكَذَا أسقطُ بالأرضِ!!"
يجلس "فارس" بمفردِهِ بالغرفةِ، فهُوَ كثيرُ الاختلافِ مع أبيه، ولا يتفقانِ في النِّقَاشِ أبدًا؟!
التليفونُ يَرِنُّ ويكسرُ صمتَ الغرفةِ، "فارس"يَرِدُّ:
-"مَنْ مَعِي؟"
يَرُدُّ "خالد":
-"أنا خالد زميلُكَ بالفرقةِ الرابعةِ، مِنْ عدةِ أيامٍ أبحثُ عَنْ هاتفِكَ؛ لأنضمَ لكم"
"فارس" في ترحابٍ:
-"مرحبًا بِكَ، أيُّ خدمةٍ أستطيعُ تقدّيمَها؟"
"خالد":
-"أريدُ أنْ أشاركَكَ البحث، إنْ كان فريقُكَ لَمْ يكتملْ"
"فارس" يبتسمُ:
-"العددُ لَمْ يكتملْ؛ مكانُكَ موجودٌ إنْ شاءَ اللهُ".
"خالد" يغلقُ الهاتفَ، وقد ارتسمتْ على وَجْهِهِ الفرحةُ.
"حازم":
-"نسيتَ أنَ تقولَ: إنّني أريدُ أنَ أنضمَ للفريقِ"
"خالد":
-"لا تخفْ، ستشاركُ في البحثِ"

"حازم" في حماسٍ:

-"أنتَ لا تعرفُ أهميةَ الموضوعِ بالنسبةِ لِي، هُمْ بالتأكيدِ يجرون وراءَ المراجعِ، لَكِنْ العملَ المَيْدَانِيّ مُهِمٌّ جِدًا، مِثْلَ: البحثِ في سلوكياتِ وثقافةِ سكانِ مناطق "بحري"، "كوم الدكة" و"المنشية" و"الفراهدة"، و"الشاطبي"، "الأزاريطة"، و"اللَّبَان"

"حازم" يستكملُ حديثَهُ:

-"خالد يجبُ أنْ تعلمَ أنَّ ربعَ تِلْكَ المناطقِ يسكنُها أجانب، والرُّبُعُ الثَّانِي نَوْبِيِينَ، وقد يكونُ أكثرُ، يعني يبقى "المنشية" و"بحري" فَقَطْ"

"حازم" وهو يلوِّحُ بيَدِهِ:

-"لا يا صَاحِبِي، أَنْتَ نسيتَ مناطقَ أخرى، هُنَاكَ "كرموز"، و"غيط العنب"، و" المحطة"، و"النَّبِيّ دانيال"

"خالد" ضاحكًا:

-"أنا نسيتُ أنَّكَ مِنْ شارعِ إيزيس".

*****

-"ذهبتُ إلى شارعِ النَّبِيّ دانيال، كما اتفقتُ مع "فارس"، كُلَّما أنظرُ حولي؛ أجدُ الكُتُبَ يميناً ويسارًا، لَكِنَّ قلبي تقلُّ دقاتُهُ؛ كُلَّما اقتربتُ مِنْ مكانِ اختفاءِ حبيبتي في هذا الشارعِ؛ لذَلِكَ أتجنَّبُ المرور به باستمرارٍ"

-"أشعرُ بأَنَّنِي أتنفسُ بصعوبةٍ، بَلْ أَنَّ قلبي يكادُ يتوقفُ، تبدُو لِي أَمَامَ عيونِي، خيالاتٌ أَهُمْ أناسٌ؟! أَمْ هِيَ روحُ حبيبتي تداعبُني، أَمْ طيفُها الطيبُ يناجِينِي؟!"

هُنَاكَ فتاةٌ تَمُرُّ وسطَ الناسِ، هي أشبهُ بالمَلَاكِ، رغمَ أنَّ الشارع مليء بالفتياتِ، إلَّا أنَّنِي انجذبتُ لها"

-"حبيبتي هي أَمْ أَنَّنِي بدأتُ أفقدُ التركيزَ؛ فعيني لم تَرَاهَا مِنْ زمنٍ، ولَكِنْ هِيَ، أنا لا أحلمُ هبة هبة هبة ....."

-"نظرتْ لي بدهشة، هي فعلًا، ولَكِنَّ العجيبَ أنَّها لَمْ تقفْ، بَلْ تركبُ تاكسي، أجري أحاولُ اللحاقَ بها دُونَ جَدْوَى!!"

-"الناسُ ينظرونَ جميعًا في اتجاهي؛ ظَنُّوا أَنَّنِي مجنونٌ، ما يحدثُ فوق نطاق العقل؛ لماذا لَمْ تقفْ؛ أَهِيَ فعلًا؟!؛ هي اختفتْ مُنْذُ زمنٍ، وقِيلَ: إنَّها ماتتْ؟!".

*****

-"ذهبتُ إلى البيتِ، ولَكِنْ غير كُلِّ يومٍ أُمِّي لَمْ تكنْ بانتظارِي، بَلْ أغلقتْ بابَ المنزلِ، وأخبرتْنِي أَنَّهُ عَلَيَّ احترام البيت وعدم التأخر في الحضور؛ ولذَلِكَ فاليومَ أنا مطرودُ؛ اتصلتْ بصديقي "فارس"؛ ورَحَّبَ بحُضُورِي؛ حَيْثُ أَنَّهُ وحيدُ، والدَاهُ متفهمانِ للموقفِ ثُمَّ أغلق الهاتفَ للشحنِ".

-"كنتُ محرجًا قليلًا، ولَكِنَّ والدَ "فارس" رفع عني الإحراج؛ عندما تذكَّرَنِي، كم كنتُ آتي إليهم!!، وأذاكرُ مع "فارس" حَتَّى الصباح، وأَنَّهُ مُنْذُ وفاةِ وَالِدِي لَمْ آتَي؛ مِنْ أجلِ أَنَّ وَالِدَتِي ترفضُ ذَلِكَ!!، ثُمَّ دخلتُ غرفةَ صديقي "فارس"، كان الوقتُ متأخرًا، لَكِنْ تحدَّثَنا سويًا عن أيامِ

الطفولةِ، وكيفَ نخطفُ سندوتشاتٍ مِنْ بعضنا؟!، حَتَّى أَنَّنِي نمتُ، وأنا أتحدَّثُ معه!!".

"فارس" في هدوءٍ:

-"استيقظْ يا أحمد، عقاربُ الساعةِ تشيرُ إلى الثانيةِ عشرةِ ظهرًا، ما هذا النومُ كُلَّهُ؟!".

ولَكِنَّ "أحمد" لا يستجيبُ، يحاولُ ثانيةً؛ ليوقظَهُ، وأخيرًا "أحمد" يستيقظُ، ولَكِنْ يبدُو عليه الإرهاقُ والتعبُ، وكأَنَّهُ لَمْ ينمْ مُنْذُ زمنٍ!!

"فارس" في حنان الأم:

-"أحمد ماذا بِكَ يا صديقي، تبدُو لَمْ تنمْ مِنْ سِنِينَ؟!"

يفرك "أحمد" أصابعه:

-"نَعَمْ، لا أريدُ الاستيقاظَ مِنْ أحلامي، رغمَ أَنَّنِي أبدُو بداخلِهِ مشلولٌ لا أتحرَّكُ!!"

يَرُدُّ "فارس" في لهجةٍ يقطرُ الأَسَى منها:

-"مَرَّ أكثرُ مِنْ ثلاثِ سنواتٍ، وأَنْتَ لَمْ تَنْسَ مَا حَدَثَ؟!"

"أحمد" في ضيقٍ:

-"تسألني كيفَ كُلُّ شيءٍ غامضٌ حَتَّى اليومِ؟!"؛ حبيبتي فجأةً اختفتْ؟!، لَمْ أعلمُ عنها شيئًا، حَتَّى أهلُها بحثُوا عنها كثيرًا، لم يجدُوها، والوحيدُ الَّذِي يعلمُ أَيْنَ اختفتْ، وكانتْ آخرُ لحظةٍ معه، هو أنا، ومع ذَلِكَ لَمْ أفهمْ شيئًا؟!"

"فارس" يخاطب "أحمد":

-"ولَكِنْ مَا حَدَثَ بالأمسِ، لا يغيِّرُ رَأْيَكَ فيما تقولُ"

"أحمد" يكملُ:

-"أنا لا أدري؟!، ما رأيتُ بالأمسِ حقيقي أم خيال؛ فمنذ اختفائِها وأنا أخشى السَّيْرَ بهذا الشارِع، ولأوَّلِ مَرَّةٍ أسيرُ بِهِ مُنْذُ هذه الليلةِ كانَ بِالأَمْسِ"

-"إذًا هي كوابيس بالليلِ؛ الآنَ أصبحتْ أحلامًا بالنهارِ"

يبدُو "أحمد" غاضبًا، وينظرُ إلى "فارس" بحِدَّةٍ؛ ويقولُ:

-"بَعْدَ قليلٍ تقولُ لي: نذهبُ لطبيبٍ نَفْسَانِيّ"

"فارس" يحاولُ أنْ يلطّفَ الموقفَ؛ فيضحكُ قائلًا:

-"ما العيبُ في ذَلِكَ؟، وخَاصَّةً أحلامُكَ تتكرَّرُ كُلَّ يومٍ، أَنْتَ محتاجٌ تتكلَّمُ مع طبيبٍ؛ ليحاولَ إخراجَكَ مِنْ أحلامِكَ و كوابيسِكَ الَّتِي تسبِّبُ لَكَ التعبَ والأرقَ، وأنا أخافُ عَلَيكَ، ونَحْنُ أصدقاءُ مُنْذُ فترةٍ طويلةٍ"

-"نَحْنُ أكثرُ مِنْ إخوةٍ، وهُوَ نائمٌ عِنْدَكم مِنْ أَمْسِ، أيوجدُ أكثرُ مِنْ ذَلِكَ إثبات، على العمومِ سأفكِّرُ في موضوعِ الطبيبِ بإذنِ اللهِ، هيَّا نذهبْ للكليةِ"

"فارس" يبتسمُ:

-"لَكَ عِنْدِي مفاجأة".

*****

(٥)

"خالد" و"حازم" في الجامعة، مِن الساعة (٨)؛ لحضور المحاضرات، وأيضًا في انتظار اتصال مِنْ "فارس" عند وصولِهِ للجامعةِ، ولَكِنَّ الساعةَ أصبحتْ (٢) ظهرًا، ولَمْ يَتَّصِلْ "فارس"؛ لذَلِكَ كان يبدُو "حازم" غاضبًا:

"خالد" يحادثُ "حازم":

-"لماذا أَنْتَ عابسٌ يا حازم؟!"

"حازم" يقطّبُ جبينَهُ:

-"لَمْ يتصلْ "فارس" حَتَّى الآنَ!!"

يَرُدُّ "خالد":

-"اللهُ أعلمُ بظروفِهِ، ولماذا العجلةُ؟!؛ كُلُّ شيء بأوانٍ، أَنْتَ لَمْ تكنْ متحمسًا في البداية للبحثِ"

"فارس" في اقتضابٍ:

-"كلامُكَ صحيحٌ؛ لكن نحن نحتاجُ أنْ نعرفُ هل سننضمُ لهم في المشروع أَمْ نبحثُ عَنْ مشروعٍ آخر، ما الخطأُ في ذَلِكَ؟"

اقتنعَ "خالد" بكلامِ "فارس":

-"فعلًا كلامُكَ صحيحٌ"

يقاطعُ حديثَهم نغمةُ هاتفِ "خالد"؛ حَيْثُ "فارس" يتصلُ بـ"خالد"؛ ويبلِّغُهُ أنَّهُ بانتظارِهِ عِنْدَ مدخلِ القِسْمِ بالكليةِ، وبالفعلِ يتقابلانِ.

شارِع النَّبِيّ دانيال أحدُ أقدمِ الشوارِعِ بالإسكندريَّةِ، يعودُ تاريخُهُ إلى بداية بناء المدينة ذَاتِها، يمتَدُّ مِنْ محطةِ مِصْرَ حَتَّى محطةِ الرملِ، هناك مسجدٌ يُسَمَّى باسمِهِ يرجعُ إلى رَجُلٍ صَالِحٍ يُسَمَّى "مُحَمَّد بنُ دانيالِ المُوصِلِي" أحدُ شيوخِ المَذْهَبِ الشَّافِعِي، وهُوَ عَالِمٌ عِرَاقِيّ قَدِمَ مِن الموصلِ إلى الإسكندريَّةِ في القَرْنِ الثَّامِنِ الهِجْرِيّ، ضريحُهُ بالمسجدِ بجوارِ ضريحِ لقمانَ الحكيمِ، أمَّا النَّبِيُّ دانيالُ؛ فهُوَ أحدُ أنبياءِ بَنِي إسرائيلَ، رُبَّمَا يعودُ تاريخُهُ للقَرْنِ السَّادِسِ قبل الميلاد؛ لذَلِكَ سُمِّيَ المعبدُ اليَهُودِيّ الموجود بالشارع على اسمِ هذا النَّبِيّ؛ ذَاكَ الشارعُ الغامضُ حَتَّى في تاريخِ اسمِهِ.

المبنى القديم بشارع النَّبِيّ دانيال، عندما أَمَرَ الإسكندرُ الأكبرُ ببناءِ الإسكندريَّةِ؛ تَمَّ بناؤُها وفقًا للتخطيطِ الهيبودَامِيّ، والَّذِي يعني: الشكلُ الشَّبَكِي أو رقعةُ الشطرنجِ؛ حَيْثُ كانتِ المدينةُ مُقَسَّمَةً إلى شَارِعِينِ رَئِيسِيينِ: أحدُهما طُولِي، والآخرُ عَرْضِي، يخلقُ تقاطعُهما ميدانًا كبيرًا في المنتصف، ويُعتقدُ أَنَّ شارعَ "النَّبِيّ دانيال" جزءٌ مِن الشارعِ الرَّئِيسِي الطُّولِي الَّذِي كان يمتَدُّ مِنْ شمالِ المدينةِ إلى جنوبِها، ومِنْ أَهَمِّ معالمِهِ: الكنيسةُ المرقسيَّةُ بالنَّبِيّ دانيال.

ويوجدُ بشارعِ النَّبِيّ دانيال العديدُ مِن المباني الهَامَّةِ في مدينة الإسكندريَّةِ؛ فَفِي بدايتِهِ يوجدُ مسجدُ النَّبِيّ دانيال، وأيضًا معبدُ "إلياهو" الَّذِي تتردَّدُ عليه الجاليةُ اليهوديَّةُ بالإسكندريَّةِ.

وعلى الجانبِ الآخرِ مِن الشارعِ توجدُ الكنيسةُ المرقسيَّةُ أقدمُ كنيسةً في مِصْرَ وأفريقيا، والَّتِي بَنَاهَا القديسُ "مرقس" في القَرْنِ الأَوَّلِ الميلادي عامَ (٤٣) م، وتوجد بها رأسُهُ، وقَدْ بَاتَ هذا الشارعِ مِنْ أكثرِ الشوارعِ حيويةً في الإسكندريَّةِ؛ بسببِ وجودِ المحالِ التجاريَّةِ الَّتِي تبيعُ كُلَّ شيءٍ على جانبيه، بدءًا مِن الملابس والأحذية، انتهاءً بالكتب والأجهزة الكهربائية، كما يوجدُ به بعضُ الأبنيةِ الهَامَةِ، مِنْ بينِها: مبنى جريدة «الأهرام» في الإسكندريَّةِ، والمعبدُ اليَهُودِيُّ الَّذِي يتوسَّطُ الشارعُ والمركزُ الثَّقَافِي الفَرِنْسِيّ الَّذِي أُنْشِيءَ عامُ (١٨٨٦) م.

كُتُبٌ على الرصيف في جميع المجالاتِ، "إبراهيم" أحدُ بائعي الكُتُبِ، يتحدَّثُ مع بائعٍ بجوارِهِ عَنْ ذَلِكَ الفَتَى الَّذِي ظَلَّ يصرخُ ويُنَادِي على الفتاةِ، لدرجةِ أَنَّنِي ظننتُ أَنَّهَا سرقتْهُ.

البائعُ الآخرُ يقول:

-"هي سرقتْهُ بالفعلِ؛سلبتْ قلبُهُ وعقلُهُ، وكان واضحًا على صرختِهِ".

بنهايةِ الشارعِ مبنى قديمٌ مصمَّمٌ على الطرازِ الإيْطَالِي الرائعِ، ما زالَ له بريقٌ رغمَ الترابِ الملتصقِ على وَجْهِ المبنى!!

وفي إحدى الشققِ بالدَّوْرِ الثَّانِي تسكنُ هي تحاكي أخته الصغري "كارما":

-"لم أعرفْ لماذا نظرتُ خَلْفِي؟!، ولماذا لَمْ أقفْ؟!، وأتحدَّثُ إليه، الخوفُ تملَّكُني منه، وخَاصَّةً أَنَّهُ كان لا يُنَادِي، بَلْ يصرخُ، لدرجةِ أَنَّنِي أوقفتُ تاكسي يوصِّلُني للبيتِ؛ خشيةَ التحدُّثُ معه!!".

تنظر "كارما" في اندهاشٍ:

-"وهَلْ تَعْرِفيه مِنْ قَبْلُ"

-"أنا لا أعرفُهُ، هُوَ كان يصرخُ كالمجنونِ، عندما نَطَقَ اسمَ هبة، جعَلني أَخْشَى أنْ أتحدّثَ إليه، وأسألُهُ"

تردفُ أختُها:

-"كارما مُنْذُ سِنِينَ أَنْتِ هبةُ، فماذا حَدَثَ؟!"

تجيبُ "كارما":

-"مُنْذُ ثلاثِ سنواتٍ مِنْ لحظةِ اختفاءِ "هبة"، شيءٌ مَا جعلَني أشعرُ بأنَّ روحَ "هبة" ملتصقةٌ بي، وتريدُني أنْ أكونَ هِيَ، وأنْ أُسَمّي نَفْسِي باسمِها، ولَكِنَّ اليومَ شعرتُ بأنَّ تِلْكَ الروحَ الملتصقةَ بِي بذَلِكَ الشارعِ تركتْني وحيدةً مَرَّةً أخرى".

"كارما" لا تعرف ماذا تفعلُ، أو تقولُ، لَكِنَّها تحاولُ أنْ تنطقَ بمَا تشعرُ بِهِ.

"كارما":

-"حبيبتي عندما اختفتْ أختُنا، كنتُ أنا صغيرةً، وكنتم أنتما الاثنتانِ متعلَّقَتينِ ببعضٍ، ولَكِنَ أنا اليومَ كبرتُ، وأستطيعُ أنْ أكونَ أختَكِ وصديقتَكِ، أَلَيْسَ كذَلِكَ؟!"

الحزنُ والخوفُ، هذا ما يبدُو على "جميلة".

-"نَعَمْ، حبيبتي أَنْتِ أُخْتِي، لَكِنَّ خوفي يأتي مِنْ شيءٍ يهمسُ بأُذُنِي قائلًا:

-"أَنْتِ مِن اليومِ "جميلةُ" مَرَّةً أخرى؟!".

*****

(٦)

"أحمد" يسألُ "فارس":

-"ما المفاجأةُ يا صديقي؟!"

ليجيبَهُ "فارس":

-"اتَّصَلَ أحدُ مِنْ زملائِنا بالقِسْمِ يرغبُ أنْ ينضمَ لمشروعِ البحثِ، فَمَا رأيُكَ؟"

"أحمد" لمعتْ عينَاهُ:

-"عظيم أنَّكَ وجدتَ مجنونًا، وأيضًا يتصلُ بِكَ!!"

"فارس" في زَهْوِ الطاووسِ:

-"حَتَّى تعرفَ أَنَّنِي مُهِمٌّ، ظَلَّ يفتِّشُ عَنْ رَقَمِي!!"

يضحكُ "أحمد":

-"لأنَّكَ صَدِيقِي، ولَكِنْ يا "فارس" نحتاجُ زميلًا رابعًا للفريقِ"

"فارس" يمزحُ:

-"أكيدُ وجدتَ مجنونًا آخرَ بالدفعةِ ينضمُ لنا"

حينَها وَصَلَ "خالد" و"حازم" عِنْدَ مَدْخَلِ القِسْمِ؛ ليتعرَّفَا.

"أحمد":

-"بصراحة كنتُ أظنُ أنَّهُ لا أحدَ يجرُؤ على أنْ يشاركَنا البحثَ"

يَرُدُّ "حازم":

-"نَحْنُ اتَّخَذْنا القرارَ الصعبَ لمشاركتِكم البحثَ، فَما رأيُكَ؟"

يضحكُ "أحمد":

-"لا أعرفُ، أكنتُ أهنِّئُكَ على تلك الخطوةِ أَمْ لا؟!، لأَنَّني أظنُ البحثَ صعبًا"

"خالد" في حماسِ الشبابِ:

-"لَكِنْ إِنْ نجحَنا، سنحصلُ على إعجابِ الدكتور والدرجاتِ النهائيَّةِ"

يلتقط "فارس" دفةَ الحوارِ:

-"ولا تَنْسَ، الأَمْرُ مشوقٌ للبحثِ فعلًا، وإِنْ تطلَّبَ مجهودًا أكثرُ"

"حازم" في هدوءِ البحرِ:

-"أكيد يتطلَّبُ مجهودًا أكبرَ، أظنُ يجبُ علينا أَنْ نُقَسِّمَ أَنْفُسَنا إلى قِسْمينِ: نصفُنا يبحثُ عَنْ مراجعَ في أثرِ الحضارةِ القديمةِ في تكوينِ الشخصيةِ المصريَّةِ الحديثةِ، وعَنْ أثرِ الحضارةِ الرومانيَّةِ على الحضارةِ المصريَّةِ القديمةِ، والنِّصْفُ الثَّاني يحصرُ المعالمَ الأثريَّةَ الرومانيَّةَ القديمةَ بالإسكندريَّةِ، ومَعالَمَ أخرى، ولَكِنْ تَخُصُّ الإسكندريَّةُ فَقَطْ، فَما رأيُكم؟"

"أحمد":

-"أنا موافق".

وكذَلِكَ "فارس"، و"خالد"، "حازم" يشيرُونَ برؤوسِهم بالموافقةِ.

"فارس":

-"أنا أبحثُ في المراجع"

"خالد":

-"وأنا أيضًا أنضمُّ مع "فارس"؛ للبحثِ في المراجع"

"أحمد":

-"أنا أبحثُ وأقومُ بحصرِ المعالِم، وهَلْ أَنْتَ موافقٌ يا حازم"

"حازم" في نشوة:

-"اتفقنا، ونبدأُ مِنْ غدًا؛ نتقابلُ عِنْدَ المسرح الرُّومَانِي الساعة الواحدة ظهرًا، ونستريحُ اليومَ؛ فأنا مستيقظٌ مِن الساعة السادسة صباحًا".

*****

"أحمد" قَدْ ذَهَبَ للبيتِ اليومَ في الساعة الثامنة مساءً؛ حَتَّى يُرْضِي أُمَّهُ، ولَكِنْ لَمْ تكنْ بانتظارِهِ، بَلْ وجدَها نائمةً، وهي لَمْ تعتادِ النَّوْمَ في مِثْلِ هذا الوقت، يضعُ يَدَهُ على رأسِها؛ فإذا حرارتُها مرتفعةٌ، يمسكُ بهاتفِهِ؛ ليتَّصِلَ بالطبيبِ.

يتناولُ "حازم" القهوةَ الَّتِي قدَّمَتْها لَهُ والدتُهُ، وهُوَ ينظرُ مِنْ "تراس البلكونة" إلى الطريق الَّذِي تزيِّنُهُ أضواءُ لافتاتِ المحلاتِ الَّتِي تختلفُ عَنْ منظرِ المَبَانِي القديمةِ.

يبحثُ مَعَ نَفْسِه:

-"مِنْ أَيْنَ نبدأُ، وهَلْ سنصلُ لنتيجةٍ إيجابيَّةٍ في ذَلِكَ البحثِ، أَمْ ستكونُ مضيعةً للوقتِ؟!، هُنَاكَ أَثَرٌ واضحٌ للحضارةِ القديمةِ لبعضِ الشعوبِ في الشخصيةِ الحديثةِ، كانَ يمكنُ أَنْ نتابعَهُ أفضلُ مِنْ موضوعِ بحثِنا، وفي الحضارةِ النوبيَّةِ القديمةِ لَهُ تأثيرٌ حَتَّى يومِنا على الشخصيةِ النوبيَّةِ الحديثةِ؛

حَيْثُ لَدِيهم ثقافةٌ، ومعتقداتٌ، وعاداتٌ مختلفةٌ عَنْ بَاقِي المِصْرِيينَ حَتَّى اليومِ!!"

-"لَكِنَّ هَذِهِ فُرْصَتِي؛ كَيْ أحصلَ على ما أريدُ بشكلٍ شَرْعِي، ولَنْ يقفَ أحدٌ بطريقي أبدًا!!"

يتذكَّرُ "أحمد" أَنَّ مَا مَعَهُ مِنْ مالٍ؛ لَنْ يَكْفِي أجرَ الطبيبِ؛ لذَلِكَ يسرِعُ في عملِ كَمَّادَاتِ مياهٍ لأُمِّهِ؛ تنخفضُ الحرارةُ، وينزلُ مِن البيت لأَقْرَبِ صيدليةٍ؛ ليُعْطِيهِ الصيدلي مجموعةً مِنْ الأقراصِ (تُسَمَّى بمجموعة البَرْدِ).

يحاولُ الصيدليُّ طمأنتَهُ، ويظهرُ على ملامحِ "أحمد" القلقُ، ويقولُ لَهُ:

-"إنْ شاءَ اللهُ الحرارة تنخفضُ، وتكونُ أُمُّكَ بخيرٍ في الصباحِ".

يذهبُ "أحمد" للبيتِ، ويجلسُ بجوارِ أُمِّهِ، ويعطيها الدواءَ، ويضعُ كَمَّادَاتِ مياهٍ باردةٍ على رأسها؛ تنخفضُ الحرارةُ مع الوقت، يبدأ جسدُها يعرقُ؛ لتفتحَ عيناها؛ لتجدَ أَمَامَها "أحمد":

-"أُصبتُ بالقلقِ؛ ووجدتُ هاتفَكَ مغلقًا؛ ظللتُ واقفةً في (البلكونة) حَتَّى (١٠) صباحًا، وبَعْدَها نمتُ"

يبتسمُ "أحمد"؛ فلَمْ يَرَ أُمَّهُ تتكلَّمُ مَعَهُ مِنْ قَبْلُ بهَذَه اللهفةِ.

تكملُ الأُمُّ كلامَها:

-"كَم الساعةُ يا أحمد؟"

-"أحمد" باسمًا:

-"الساعةُ (٧) صباحًا"

تظهرُ علامةُ اندهاشٍ عَلِيهِ؛ ليَحْكِي أَنَّهُ رجعَ للبيتِ في الثامنة مساءً؟!

تنظرُ إِليهِ وتبتسمُ؛ فَهِيَ لَمْ تعتادْ مِنْهُ تَحَمُّلَ مسئوليةِ نَفْسِهِ؛ لذَلِكَ كانتْ تقسُو عَلِيهِ؛ فُمُنْذُ موتِ أَبِيهِ لَمْ يحاولْ أنْ يسألَ والدتَهُ: كيفَ تدبّرُ لَهُ مصروفاتِه أو متطلباتِ البيتِ، حَتَّى في أيَّامِ إجازةِ آخرِ العامِ لَمْ يسعَ أبدًا للعملِ مِثْلَ زملائِهِ!!.

*****

(٧)

الشمسُ لَمْ تظهرُ مُنْذُ الصباح؛ حَيْثُ السماء تغطّيها السحب، الرياحُ تطيّرُ صفحاتِ الكُتُبِ، والباعةُ بين لملمةِ الكُتُبِ وعرضِها للقَادِمِينَ؛ مِنْ أَجْلِ الشراءِ.

حينُها كان يستعِدُّ الحاجُ "رضوان" لأذانِ صلاةِ الظهرِ، وهُوَ أحدُ المسؤولِينَ عَن المسجدِ، بينما رجلٌ عجوزٌ يَمُرُّ داخلَ المسجدِ؛ لينبّهُهُ الحاجُ "رضوان":

-"الحَمَّامُ مُغْلَقٌ للترميمِ"

يَرُدُّ الرَّجُلُ:

-"شكرًا يا حاج، أنا متوضئٌ، ولَكِنْ كنتُ أريدُ أنْ أمسحَ على الجوربِ"

هُنَا يستديرُ عَمٌّ "حسن"؛ ليقولَ:

-"هي دورةُ مياهٍ واحدةٍ سقطتْ على البَيَّارة، الغرفةُ أَسْفَل دورةِ المياهِ دُونَ قاعدة"

نظرَ لَهُ عَمٌّ "رضوان"، ودُونَ أَنْ يَرُدَّ؛ أشارَ بيَدِهِ:

-"حَانَ وقتُ الأذانِ".

انتهى عَمٌّ "رضوان" مِنْ خَتْمِ الصلاةِ؛ للتحدُّثِ مع عَمِّ "حسن":

-"الأَمْسُ في صلاةِ العِشَاءِ انهدمَ حَمَّامٌ آخَرُ، كادَ رَجُلٌ أنْ يموتَ لولا الناسُ أنقذُوهُ، الغريبُ أَنَّنِي وجدتُهُ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ المسجدَ اليومَ في صلاةِ

الفَجْرِ، وذَهَبَ لدورةِ المياهِ مَرَّةً ثانيةً، ولاحظَ أحدُ المَوْجُودِينَ أنَّهُ دَخَلَ دروات المياهِ كُلِّها، وكأنَّهُ يبحثُ عَنْ شيءٍ فَقَدَهُ، والأغربُ أنَّهُ لَمْ يُصَلِّ أصلًا؟!"

-"كيفَ عرفتَ يا حاجَ رضوان؟!"

يجيبُهُ:

-"مِنْ خادمِ المسجدِ الَّذِي يحرسُ الأحذيةَ، فَقَدْ رآهُ ينصرفُ عَقْبَ الصلاةِ، رغمَ أنَّهُ كانَ خارجُ حينِها مِن دورةِ المياهِ، والآنَ في صلاةِ الظهرِ أَتَى، واتَّجَهَ ناحية الحَمَّامِ؟!"

عمُّ حسن يسألُ الحاج "رضوان":

-"هَلْ تعرفُ مَنْ؟!"

الحاج "رضوان":

-"نعم، إنَّهُ الرَّجُلُ العجوزُ الَّذِي أخبرتْهُ، بأنَّ الحَمَّامَ مغلقٌ للترميمِ".

حينها كان "حازم" ينتظر "أحمد" عند المسرح الرُّومَانِي، ولَكِنَّه لَمْ يتصلْ؛ ليعتذرَ، ولَمْ يَرُدَّ على الهاتفِ؛ لذَلِكَ اتصلَ بصديقِهِ "خالد"؛ ليفهمَ مِنْهُ:

-"هَلْ "فارس" مَعَكَ؟"

أجابَهُ:

-"نَعَمْ، أعطى التليفون لـ"فارس"، يخبرُهُ أنَّهُ لا يعرفُ سببَ عدمِ مجيئِهِ" لَكِنَّ نهايةَ اليومِ يذهبُ؛ ليطمئنَ عَلَيهِ.

-"يمكنُكَ يا صَدِيقِي أنْ تبدأَ اليومَ بمفردِكَ في البحثِ"

يَرُدُّ "حازم":

-"لا مشكلة، مع السلامة".

"حازم" يَتَّجِهُ؛ ليدخلَ المسرحَ الرُّومَانِي، وهُوَ مِنْ أَهَمِّ الآثارِ الرومانيَّةِ بالإسكندريَّةِ؛ حَيْثُ يوجدُ فوجٌ سِيَاحِيٌّ يزورُ المسرحَ، ويبدُو أنَّهم أشخاصٌ مُهِمُّونَ؛ فالحراسةُ شديدةٌ جِدًّا؛ مِمَّا أثارَ فضولَ "حازم"، ولَكِنْ أبلغُوه:

-"ممنوعُ الدخولِ اليومَ لظروفٍ أمنيَّةٍ".

التفت "حازم" في لهفةٍ؛ ليَرَى مِن الناحيةِ الأخرى المكشوفةِ للمسرحِ الزُّوَّارَ المُهِمِّين؛ ليجدَ أُناسًا تلبسُ بدلًا سوداءَ، وقبعاتٍ سوداءَ، يبتسمُ "حازم":

-"لذَلِكَ الحراسةُ مُشَدَّدَةٌ".

قَرَّرَ "حازم" الذهابَ للبيتِ؛ فالظروفُ ضِدُّهُ: "أحمد" لَمْ يَأْتِ، والمسرحُ مُغْلَقٌ في وَجْهِهِ، ولا يوجدُ مَا يشجّعُ اليومَ، في طريقِهِ للبيتِ كُشْكٌ يبيعُ الكُتُبَ، بجوارِ سينما "أمير" شَدَّهُ كِتَابُ "طلاسم الإسكندر الأكبر".

*****

استيقظ "أحمد" مِن النوم يتحسَّسُ بيَدِهِ؛ بحثًا عَن التليفون؛ حَتَّى يدركَ كم الساعة؟، تظهرُ عليه علامةُ اندهاشٍ؛ فالساعةُ الآنَ (٨) مساءً!!

-"كُلُّ هذا نَوْم"

ينتبهُ إلى مصدرِ الكلماتِ؛ ليجدَ صديقَهُ "فارس" يقفُ على بابِ غرفتِهِ.

يَرُدُّ "أحمد":

-"لقد نمتُ الساعة (٨) صباحًا"

ليجيبَ "فارس":

-"قَدْ علمتُ مِنْ والدتِك؛ فَهِيَ مَنْ فتحتِ البابَ، وحاولتُ كثيرًا مَعَكَ، حَتَّى بدأتَ تستيقظُ"

-"المهمُ أنَّكَ بخيرٍ، فَقَدْ قلقتُ عَليكَ عندما أخبرَني "حازم"؛ أنَّكَ لَمْ تأتِ في موعدِكَ؛ لتقابلَهُ، وأنَّكَ لا تَرُدُّ على الهاتفِ"

يبتسمُ "أحمد":

-"قضيتُ وقتًا صعبًا، ولَكِن الحمدُ للهِ، يبدُو الحالُ أفضلَ الآنَ"

"فارس":

-"غدًا نتقابلُ في الجامعةِ، إنَّ موضوع البحث كَكُلِّ صعبٌ ويحتاجُ مِنَّا المشاركةَ في التفكيرِ"

"أحمد":

-"إِنْ شاءَ اللهُ تجدُني مبكرًا في الجامعةِ".

*****

المسجدُ قد أغلقَ أبوابَهُ بَعْدَ الانتهاءِ مِنْ صلاة العِشَاءِ، الساعةُ الآنَ الثامنةُ والنصفُ مساءً، هُنَاكَ مَنْ يطرقُ على البابِ بِشِدَّةٍ، يقومُ عَمُّ "رضوان" بفتحِ البابِ؛ ليجدَ رَجُلًا ضخمًا يبلغُهُ:

-"نَحْنُ مِنْ جهاتٍ أمنيَّةٍ، ونريدُ أنْ نفتِّشُ عَنْ أُنَاسٍ تَمَّ التبليغُ بأنَّهم مُخْتَبِؤنَ هُنَا"

يشير عَمُّ "رضوان"، وهو يتلعثمُ في الكلام:

-"تفضَّلْ حضرتَكَ"

يَرِنُّ هاتفُ لاسِلْكِيّ بيَدِ الرَّجُلِ الضَّخْمِ:
-"ما الأخبارُ؟؟"
-"نَعَمْ، دخلْنا مسجدَ "عبد الرازق"، ونَحْنُ أَمَامَ الممرِ، ويمكنُنا البدءَ في التعاملِ"
-"ولَكِنْ كُنْ على اتصالٍ دائمٍ بِي"
-"تمام يا فندم".
ينظر الرَّجُلُ الضّخْمُ إلى عَمِّ "رضوان"قائلًا:
-"أمامَكَ خِيَارَان: إمَّا تتعاونُ، وإمَّا تكونُ ضيفًا لعِدَّةِ أيَّامٍ في الأمنِ الوَطَنِيّ"
عَمُّ "رضوان" في خوفٍ:
-"أتعاونُ مَعكم يا فندم، لا توجدُ مشكلةٌ"
يشير الرّجُلُ له بالجلوسِ ثُمَّ يسألُهُ:
-"هَلْ فعلًا دورةً المياهِ لَدِيكم مُغْلَقةٌ للترميمِ أَمْ هُنَاكَ أمرٌ آخرُ؟"
يندهشُ عَمُّ "رضوان"؛ لَكِنْ يَرُدُّ بسرعةٍ:
-"هُوَ للترميمِ، وأمرٌ آخرُ أطلعُكَ عَلِيهِ".

*****

-"نفقٌ مظلمٌ لا تَرَى فيه كَفَّ يَدِكَ ثُمَّ تتجلَّى أَمَامَكَ إشاراتٌ ترشدُكَ يمينًا ويسارًا، كُلَّمَا أضئتَ مصباحًا؛ يضئُ للحظاتٍ، ورُبَّمَا دقائقُ ثُمَّ ينخفضُ ضوؤُهُ تدريجيًا، وينطفيءُ؛ لذَلِكَ بَدَتْ لي تلك الإشاراتُ، هي روحٌ، أم خادمٌ للمكانِ، تساعدُنا، عجزتْ أقدامي عَن السيرِ للأمامِ، فَقَدْ كدتُ أَهْوَى

في بئرٍ في منتصفِ النفقِ، لولا أنَّني وفَرِيقِي نسيرُ في طابورٍ يشبّكُ كُلُّ واحدٍ يَدَهُ في يَدِ مَنْ أمامَهُ، حذرُ مِنَّا لأي ظرفٍ"

-"أنا قائدُ الفريقِ على رأسِ الطابورِ، لذَلِكَ أخرجْنَا لوحاتٍ معدنيةً معنا يمكنُ تركيبَها، ونعبرُ مِنْ خلالِها، لنكملَ الطريقَ، أو نسقطَها، لنعرفَ كَمْ عمق البئرِ، وما صلابتُهُ؟، وهل ما معنا مِنْ حبالٍ يساعدُنا في النزولِ ثُمَّ تَسَلُّقِ البئر للصعودِ؟، سأخبرُهم بما وصلتُ إليه"

-"الو الو الو. ... "مسعد" ينادي، الو لا توجدُ إشارةٌ، كنتُ متأكِّدًا مِنْ هَذَا".

يتكلَّمُ مع فريقِهِ بلغةِ الإشارةِ، فهُمْ في لباسٍ يشبهُ لباسَ رُوَّادِ الفضاءِ، يرتدُونَ بدلًا مغطاةً للجسمِ والوجهِ، ومعهم أنابيبُ أكسجين للتنفسِ، نَحْنُ في سردابٍ يبعدُ خمسةُ أمتارٍ عَنْ الأرضِ، وسنزلُ لهذا النفقِ أيضًا الَّذِي ينخفضُ عَن السردابِ.

-"مُتَّفِقُونَ"

يشيرُونَ بـ"نعم"

-"وسأبدأ أنا بالنزول، لتفحُّصِ البئرِ، إمَّا أصعدُ أو أشيرُ بالنزولِ إِلَىَّ، المكانُ أكبرُ مِنْ أنْ يكونَ بئرًا، كما ظننتُ، فَفِي نهايةِ المكانِ هُنَا بأسفل يوجدُ سردابٌ آخرُ، لَكِنَّ العجيبَ فيه مَا يشبهُ المصابيحُ"

-"نزلتُ للسردابِ بحبلٍ أمسكُهُ بيَدِي، وأمشي بأقدامي على جدار النفق، وأمسكُ بالحبلِ مِنْ أعلى أعضاء الفريق، حَتَّى وصلتُ أرضية النفق؛ لأجدَ أَمَامِي ممرًا عظيمًا ارتفاعُهُ تقريبًا (٨) أمتارٍ"

-"نزل باقي الفريق حَتَّى آخر رَجُلٍ؛ فهُوَ قَوِيُّ العضلاتِ، ومُدَرَّبٌ على النزولِ بقفزاتٍ خَاصَّةٍ تساعدُهُ على التسلُّقِ، ودُونَ حاجةٍ إلى الحبالِ، وهَا أَنَا والفريقُ نتقَدَّمُ خطوةً تِلْوَ الأخرى بالسردابِ بحرصٍ شديدٍ، ونستخدمُ تِلْكَ الألواحَ المضيئةَ؛ لنَرَى الطريقَ"

مَرَّتْ أكثرُ مِنْ نِصْفِ ساعة، ونَحْنُ نمشي، هَلْ لا ينتهي ذَلِكَ المَمَرُّ؟!، ولَكِنْ هُوَ أكثرُ طولًا مِمَّا توقَّعْتُ، هَلْ ما أرى انعكاسًا للضوءِ أَمْ ماذا يكونُ؟!".

*****

(٨)

تقابل "أحمد"، و"فارس"، وباقي الفريق في الجامعة، اعتذرَ "أحمد" لزميلِهِ "حازم":

-"آسف يا حازم؛ لأنَّني لَمْ آتِ بالأَمْسِ لظروفٍ عائليَّةٍ".

"حازم" في تفهُّمٍ:

-"ولا يَهِمُّكَ، لَكِنْ علينا ألَّا نضيّعَ اليومَ"

"فارس":

-"بكُلِّ تأكيدٍ"

"خالد":

-"بالأمسِ "حازم" اشترى كِتَابًا بعنوانِ: "طلاسم الإسكندر الأكبر"، وكان مع الكِتَابِ (CD) أرسله لي "حازم"؛ وقد أثارَ اهتمامي جِدًّا"؛ يتحدَّثُ الكِتَابُ عَن الإسكندر الاكبر، عندما بَنَى الإسكندريَّةِ قَسَّمَها إلي شَارِعينِ رَئِيسِيينِ: مِنْهما شارع عرضي هو: "المَلِكِ فؤادِ"، وشارع طولي وهو الأَهَمُّ: شارع النَّبِيِّ دانيال، والدليلُ على ذَلِكَ؛ فَفِي بدايةِ الشارع يقبعُ مسجدٌ مِنْ أقدمِ مساجدِ الإسكندريَّةِ، وفي منتصفِ الشارعِ الكنيسةُ المرقسيَّةُ، وهي أَوَّلُ كنيسةٍ مصريَّةٍ بناها القديسُ "مرقس" مُبَشِّرُ المسيحيَّةِ في مِصْرَ وأحدُ تلاميذِ السيدِ المَسِيحِ، وكانتِ الكنيسةُ المَقَرَّ الدائمَ لبابا

بطريرك الأقباط الأرثوذكس قَبْلَ تحديدِ القاهرةِ عاصمة لمِصْرَ، وفي نهاية الشارع تجاه محطة الرمل يقعُ المعبدُ اليَهُودِيّ، والَّذِي لا تزالُ الجاليةُ اليَّهُودِيَّةُ تُصَلِّي فِيهِ حَتَّى اليومِ".

-"قَبْلَ ذَلِكَ عندما ماتَ الإسكندرُ الأكبرُ، وُضِعَ جثمانُه في تابوتٍ ذَهَبِيّ صُنِعَ على هيئةٍ بشريَّة، وتفيدُ بعضُ النصوصِ أنَّ عَرَّافًا تَنَبَّأَ بأنَّ البلدَ الَّتِي سيُدْفَنُ بها الإسكندرُ،(ستعرفُ السعادةَ طيلةَ أيَّامِها، ولَنْ يَقْوَى أحدٌ على غزوِها وقهرِها)؛ مِمَّا دَفَعَ الأمراءُ للسَّعْي؛ للاستحواذِ على الجثمانِ، لاسِيْمَا أنَّ دفنَ المَلِكِ الحَالِي للمَلِكِ السابقِ يُعَدُّ إثباتٌ بحَقِّهِ في العرشِ، وأثناءَ سَيْرِ موكبِ جنازةِ الإسكندرِ مِنْ "بَابِل" إلى "مقدونيا" تعرَّضَ لهم "بطليموس"؛ وحَوَّلَ الموكبَ إلى "منف" عاصمة مِصْرَ؛ حَيْثُ حَنَّطَ الجثمانَ ودفنَهُ، ثُمَّ قامَ خليفتُهُ "بطليموس الثاني" بنقلِ التابوتِ إلى الإسكندريَّةِ وبقى حَتَّى بداية العصور الوسطى بقليلٍ، ثُمَّ أقدم "بطليموس التاسع" على نقل مومياء الإسكندر مِن التابوتِ الذَّهَبِيّ إلى تابوتٍ آخرَ مصنوعٍ مِنْ زجاجٍ؛ وذَلِكَ حَتَّى يَتَسَنَى لَهُ تذويبَهُ أوَّلًا ثُمَّ صَكَّ عملاتٍ مِنْ سائلِهِ، وقامَ الإمبراطور "سيبتيموس سيفيروس" بإغلاقِ ضريحِ الإسكندر أمامَ العَامَّة في سنة ٢٠٠م".

-"وحَتَّى اليومِ تكثرُ الرواياتُ عَنْ مكانِ الجثمانِ، حَيْثُ يَرَى البعضُ أنَّهُ توجدُ مقبرةٌ في شارعِ النَّبِيّ دانيال، وتحديدًا عند مثلثِ تقاطعِ شارعِ النَّبِيّ دانيال مَعَ شارعِ "المَلِكِ فؤادِ"، وسادَ الاعتقادُ بأنَّ مقبرة الإسكندر تقعُ تحت مسجدِ النَّبِيّ دانيال، لافتًا إلى أنَّ أحدَ اليونانِيينَ مِنْ سكانِ

الإسكندريَّةِ في عامِ ١٨٥٠ م يعملُ بالقنصليةِ الروسيَّةِ، رَوَى أنَّهُ تمكَّنَ مِن النزولِ إلى سردابٍ تحت مسجدِ النَّبِيّ دانيال، وشاهدَ مِنْ خلالِ ثقبٍ في بابٍ خَشَبِيّ قفصًا مِنْ زجاجٍ، فيه جُثَّةُ آدَمِيٌّ، موضوعةٌ على منصةٍ، وتحيطُ بها الكتبُ وملفاتُ البرديِ.

وانتشرتْ شائعاتٌ وقصصٌ عديدةٌ حول الشارع، رَدَّدَها الأهالي كثيرًا، مِنْها: ابتلاع الشارع لإحدى الفتياتِ الجميلاتِ في وضحِ النهارِ، والَّتِي كانتْ تسيرُ مع خطيبِها، ولَمْ يَتِمّ العثورُ عليها حَتَّى الآنَ؟!، بَلْ تكرَّرَت الواقعةُ، حَتَّى منعَ الأهالي بناتِهُنَّ مِن السيرِ في الشارعِ، خوفًا مِن ابتلاعِهُنَّ، وأيضًا وجودُ مقبرةِ الإسكندرِ والكنزُ الَّذِي دُفِنَ مَعَهُ مُنْذُ عَهْدِ الإسكندرِ الأكبرِ، وتَمَّ تصميمُ معتقلٍ للتعذيبِ بأسفلَ، لذَلِكَ تلك الأشباحُ تبتلعُ الفتياتِ انتقامًا!!

احْمَرَّ وَجْهَا "أحمد" و"فارس"، وتوهَّجَا مِنْ حرارةِ الكلامِ، ونظر "حازم" إليهما مقترحًا:

-"نبدأُ جميعًا مِنْ شارعِ النَّبِيّ دانيال، كُلُّ المطلوبِ نتكلَّمُ مع الباعةِ مِثْلُ أيُّ قادمٍ لشراءِ كُتُبٍ، وأنا متأكِّدُ أنَّنَا سندركُ كَمْ أثَّرَتِ البيئةُ المحيطةُ والحضارةُ القديمةُ عَلَيهم!!"

"خالد" في لهجةِ الحكيمِ:

-"ولَكِنْ لَيْسَ مِن المعقولِ أنْ نتحدَّثَ نحنُ الأربعةُ مع كُلِّ بائعٍ، فذَلِكَ يلفتُ الأنظارَ أكثرُ مِن اللازمِ، فمِن الحكمةِ أنْ نتحرَّكَ بشكلٍ فَرْدِي في نَفْسِ الوقتِ"

يَرُدُّ "حازم":

-"أرى كلام خالد صحيحًا، وحَتَّى لا نثيرَ قلقَ البعضِ مِن الباعةِ"

"فارس" في حيرةٍ:

-"ما المُقْلِقُ في كونِنا نسألُ عَن...."

ينظر "أحمد" للجميع بترقُّبٍ ثُمَّ لوَجْهِ "فارس" بشكلٍ خَاصّ، يبتسمُ "أحمد"، ويضحك الجميع.

يكملُ "فارس" حديثَ "أحمد" بَعْدَ اقتناعِهِ بالأمرِ:

-"إذًا نتقابلُ غدًا بالشارعِ، ولَكِنْ نَحْنُ لا نعرفُ بعضَنا، اتَّفَقْنا".

*****

رغم أنَّنا في الساعة الثامنة صباحًا، كان ضوءٌ خافضٌ يضيءُ مكتبًا في أحد الأبنيةِ بالحي اللاتيني بالإسكندريَّةِ، يجلسُ خلفَهُ رَجُلٌ وسيمٌ ذُو عَينينِ واسَعَتينِ، وشَعْرٌ أسودُ ناعمٌ، وتظهرُ أسنانُهُ البيضاءُ ابتسامةً مصطنعةً ارتسمتْ على شَفَتيهِ؛ ليقولَ للرَّجُلِ الضَّخْمِ:

-"ماذا حَدَثَ بالأمْسِ؟"

بلعَ الرَّجُلُ الضَّخْمُ ريقَهُ؛ ليتكلَّمَ، ولَكِنْ تعثَّرَتِ الكلماتُ بين شَفَتيهِ، وسرعانَ ما أخبرَهُ، بأنَّ "مسعد" نزلَ مع الفرقةِ، ولَكِنَّهُ لَمْ يعدْ هُوَ، ولا أعضاءُ فريقِهِ، حَتَّى أذانِ الفَجْرِ، وكنتُ مضطرًا أَنْ أرحلَ قَبْلَ أنْ أثيرَ شكًا عند الأهالي؛ حَيْثُ اقتربتْ صلاةُ الفجْرِ، ويجبُ فتحُ أبوابِ المسجدِ ككُلِّ يومٍ، ولَكِنَّ خادمَ المسجدِ أخبرَنِي بشيءٍ حَدَثَ مُنْذُ أيامٍ؛ مِمَّا جعلَنِي

أنتظرُ بَعْدَ الصلاةِ، ولَكِنْ طالبته بعدمِ التحدُّثِ مع أحدٍ حَتَّى نهايةِ الصلاةِ.

بدأ الانتباهُ يظهرُ على الرَّجُلِ الوسيمِ، فلَمْ تعدِ الابتسامةُ لها أَثَرٌ على وَجْهِهِ:

-"مُنْذُ أعوامٍ وجدَ الحاج "رضوان" الَّذِي يعملُ بالمسجدِ سردابًا بها سلالمُ توصِّلُكَ لتحتِ الأرضِ، أبلغَ المَسْؤُولِينَ في حينِها، ولَكِنْ كان الرَّدُّ أنَّ المنطقةَ كُلَّها أَثَرِيَّةٌ، لأنَّ الإسكندريَّةَ القديمةَ تقعُ تحتَ تِلْكَ المناطقِ بالكاملِ، ولا يمكنُ البحثُ في كُلِّ المنطقةِ، لذَلِكَ أُغْلِقَ الملفُ قَبْلَ أَنْ يُفتحَ، لذَلِكَ دخلَ هُوَ السردابَ مِنْ قَبْلُ، وأخبرَني أنَّهُ يوجدُ نفقٌ أيضًا، حاولتُ إبلاغَ "مسعد" باللاسلكي، ولَكِنْ دُونَ فائدةٍ!!"

يَرُدُّ الرَّجُلُ الوسيمُ:

-"شكرًا حضرةَ المُقَدّم، دورُكَ في تأمينِ العمليةِ انتهى"

يبدُو الغضبُ على الرَّجُلِ الضَّخْمِ:

-"أنا المُقَدّم نبيل سراج، لا يمكنُ أنْ تحدِّثَني هكذا، فأَنَا فعلتُ المطلوبَ، وأريدُ ما اتَّفَقْنَا عَلَيهِ مِنْ مالٍ"

بابتسامةٍ مصطنعةٍ:

"لا تَنْسَ أَنَّكَ مُقَدِّم مُتَقَاعِد، وكان الاتفاقُ تأمينَ الدخولِ والخروجِ، وهم دخلوا، ولم يخرجوا، ولم تساعدْ فريقَ البحثِ على النجاةِ، وما قلتُهُ عَن الرَّجُلِ العجوزِ مُقْلِقٌ، لقَدْ تركتَ وراءَنا أَثَرٌ، فهَلِ المطلوبُ أنْ أكافئَكَ على أخطائِكَ؟!"

*****

(٩)

على مقربةٍ مِنْ شارعِ النَّبِيّ دانيال، والكائنُ بمنطقةِ العَطَّارِينَ وسط الإسكندريَّة، تجدُ مسجدًا كبيرًا ذَا مئذنةٍ متوسطةِ الارتفاعِ، وهو عبارة عن طابقٍ أَرْضِي، وآخر عُلْوِيّ، يبهرُكَ تصميمُهُ المِعْمَارِيّ الرائعُ على التراثِ الإسلامِيّ، المدهونُ جدرانُهُ باللونِ الأصفرِ الفاتحِ المُعَرَّشِ بالأخشابِ ذاتِ اللونِ البُنِّيّ الداكنِ، بِهِ عددٌ مِن الشبابيكِ المُصَمَّمَةِ على هيئةِ المشرباتِ، لَهُ مدخلٌ خَاصٌّ صَغيرٌ لا يَتَعَدَّى عرضُهُ عَنْ رُبْعِ متر، ومتصلٌ بسُلَّمٍ صغيرٍ، حينما تقفُ أمامَ البوابةِ الرئيسيَّةِ تلمحُ لافتةً لونُها أبيضُ، مكتوبةٌ باللونِ الأخضرِ، مُدَوَّنٌ عليها مسجدُ "سيدي عبدُ الرَّزَاقِ الوَفَائِي"

عِنْدَ صعودِكَ إلى ساحةِ مسجدِ سيدي "عبد الرَّزَاقِ الوَفَائِي" تجدُ مساحةً مستطيلةً واسعةً، مُقَسَّمَةً ومنفصلةً بأعمدةٍ متصلةٍ بالسقفِ المرتفعِ، ويقعُ مِن الناحيةِ الشماليَّةِ حجرةٌ مُدَوَّنٌ عليها لافتةٌ "مكتبة المسجد"، ومِن الناحيةِ المجاورةِ توجدُ لافتةٌ مُدَوَّنٌ عليها: "مقامُ العارفُ باللهِ تَعَالَى سيدي عَبْدُالرَّزَاقِ الوَفَائِي"، ويتكوَّنُ بيتُ الصلاةِ أو المُصَلَّى إلى مساحةٍ مستطيلةٍ مُقَسَّمَةٌ إلى (٤)مداخلَ، مِنْ خلالِ نَحْوِ (٩)أعمدةٍ، ويوجدُ خَلْفَها المحرابُ، ويفتحُ بالجدارِ الشَّرْقِي فتحةَ بابٍ مستطيلةٍ تُؤَدِّي إلى الضريح.

حينما تطأُ قَدَمَاكَ داخلَ تلك الحجرة الَّتِي تحملُ حوائطَها اللونَ الأبيضَ وزينتُها مِن الأقمشةِ الَّتِي تحمل اللون الأخضر؛ حَيْثُ تجد مقامًا كبيرًا: عبارة عَنْ حجرة صغيرة مِن الحديدِ المدهونِ باللونِ الأخضرِ الَّذِي يَسُرُّ النَّاظِرِينَ، وجزؤُها العُلْوِيّ مُعَرَّشٌ بالأعمدةِ الحديديَّةِ الَّتِي تكشفُ ما بداخلِه.

هَا هُوَ ضريحُ ومقامُ العارفِ باللهِ "سيدي عَبْدُ الرَّزَاقِ الوَفَائِي"، المدخلُ الرَّئِيسِيّ للمسجدِ؛ حَيْثُ يُؤَدِّي هذا المدخلُ إلى بيتِ الصلاةِ، وينقسمُ إلى قِسْمِينِ: القِسْمُ الأَوَّلُ، وهُوَ: مَصْلَى للرِّجَالِ، أمَّا القِسْمُ الثَّانِي فخُصِّصَ لصلاةِ النِّسَاءِ.

أمَّا عن زينةِ المسجدِ؛ فهِيَ أَقَلُّ بساطةً؛ حَيْثُ تجدُ بِهِ النَّجَفَ الإسلامِيّ المُعَلَّقَ المُصَمَّمَ على الطرازِ القديمِ، بينما تَمَّ تحديثُ وتعليقُ بعضِ المراوح بين مساحاتٍ متفرقةٍ مِنْ وضعِ النَّجَفِ المُعَلَّقِ.

*****

-"في ذَلِكَ الوقتِ كنتُ بخطواتٍ غيرِ ثابتةٍ أمشِي، أَوَدُّ الرجوعَ؛ فقَلْبِي موجوعٌ مُنْذُ سِنِينَ، وما حَدَثَ مِنْ يَوْمِينِ؛ يجعلُنِي أرتعدُ، هَلْ هِيَ لَمْ تمْتْ أَمْ أنَّ روحَها تسكنُ ذَلِكَ الشارعَ، لستُ أدري؟!، لَكِنْ عَلِيَّ التماسكَ أكثرُ"

-"كيفَ، وأنا أستشعرُ أنفاسَها حولي، وأشتمُ عطرَها، وأغمضُ عينِي، أتذكَّرُ كُلَّ خطوةٍ قُمْنَا بها، كانتْ تأسرُنِي بعينِها؛ فلا أرى غيرَها؛ فهِيَ مَلَاكٌ وَفِيٌّ!!"

-"رُبَّمَا عَلَيَّ الدخولُ للمسجدِ؛ لأداءِ صلاةِ الظهرِ، ولَكِنَّ الساعةَ الآنَ الحاديةُ وثلاثونُ دقيقةً، وباقي رُبْعُ ساعةٍ على الأذانِ، بالتأكيدِ هُنَاكَ أحدٌ داخلَ المسجدِ؛ فهُوَ تابعٌ لوزارةِ الأوقافِ، وضعتُ يَدِي على البابِ الحديدِيّ الَّذِي يسبقُ ساحةَ المسجدِ؛ فوجدَتْهُ مفتوحًا؛ صعدتُ درجاتَ السُّلَّمِ؛ وطرقتُ على البابِ الخَشَبِيّ، لَكِنْ لَمْ يستجبْ أحد؟!، يبدُو لِي البابُ، مَا هَذَا .....؟!

*****

كان "حازم" في طريق شارع النَّبِيَ دانيال، ومعه "خالد"؛ لذَلِكَ أشارَ عليه الأخيرُ بالاتصالِ بـ"فارس" و"أحمد" اعترض "حازم"؛ وقال:

-"نُصَلِّي أوَّلًا الظهرَ، ونأخذُ جولةً؛ سأَحْكِي لَكَ ما لَمْ أحْكِيهُ بالأَمْسِ؛ "بأوَّلِ شارعِ النَّبِيّ دانيال مسجدُ سيدي "عَبْدُ الرَّزَّاقِ الوَفَائِي"، بِهِ ضريحٌ؛ فهُوَ مِنْ أقدمِ الأماكنِ بمدينة الإسكندريَّةِ، ويوجدُ به عددٌ مِن الآثارِ أسفلَ الضريحِ وسراديبُ قديمةٌ يُقَالُ أنَّها تَحْتَ إشرافِ وزارةِ الآثارِ"

"خالد" مخاطبًا "حازم":

-"كنتَ تتحدَّثُ بالأَمْسِ عَن النَّبِيّ دانيال"

ليَرُدُّ عليه "حازم":

-"هذا أمامَهم فَقَطْ، اسمعْ مِنِّي؛ لأَنَّنِي محتاجُ مساعدتِكَ لِي، هُنَاكَ آثارٌ يرجعُ تاريخُها إلى العَصْرِ البَطْلَمِي والرُّومَانِي في المسجدِ، في جانبِهِ الجنوبي الشرقي يظهرُ عمودٌ مِن الجرانيتِ الأحمرِ ذُو قاعدةٍ مِن الجرانيتِ الأسودِ إلى جانبِ السردابِ، مبينًا أنَّهُ ترتكزُ فيه قاعدةُ عمودِ المسجدِ؛ مِمَّا يَدُلُّ على

أنَّ هذه الجهةَ منخفضةٌ، بمَا يوازي (٨) أمتارٍ عن مستوى الشارعِ الآنَ، في الجزءِ الغَرْبِيّ مِن التلِ الصناعِيّ الَّذِي أُقِيمَ في عهدِ الحملةِ الفرنسيَّةِ على مِصْرَ، وقَدْ أُزِيلَ هذا التَّلُ الصِّنَاعِيُّ مُنْذُ عهدٍ قريبٍ؛ ووُجِدَ تَحْتَهُ مسرحٌ رُومَانِي مكشوفٌ يَطِلُّ على شارعِ النَّبِيّ دانيال مِنْ واجهتِهِ الشرقيَّةِ"

تظهرُ على "خالد" علاماتُ الاندهاشِ، ويقولُ:

-"هُنَاكَ مسجدٌ بالأقصرِ يُسَمَّى "سيدي أبو الحَجَّاج" داخلَ معبدٍ؛ فهَلْ هذا له علاقةٌ بالبحثِ الذي طلبه الدكتور "حمدي"، نَحْنُ نبحثُ فِي (أثرِ الحضارةِ القديمةِ في تكوينِ الشخصيةِ المصريَّةِ الحديثةِ)، وإنْ كان بشكلٍ أَخَصُّ المجتمع السكندري"

-"هل انتهيتُ مِنْ حديثِكَ؟"

هكذا رَدَّ "حازم"

يكمل"حازم" الحديث:

-"في روايات قديمة مِنْ أهل الإسكندريَّةِ، أنَّ ضريح "سيدي عَبْدُ الرَّزَاقِ" له بركاتٌ عديدةٌ، منها: إرسالُ هَدَايَا للأطفالِ، وارتبطتِ بالشارعِ كثيرٌ مِن القصصِ، والإشاعاتِ، والرواياتِ، وأشهرها: العروسةُ الَّتِي كانتْ تَمْشِي مَعَ خطيبِها، وانشقتِ الأرضُ؛ وابتلعتْها، وانتشر أنَّ السببَ في ذَلِكَ هُوَ: لعنةُ الإسكندرِ ومقبرتِهِ، والسراديبُ كانتْ عبارةُ عَنْ أنفاقٍ كبيرةٍ ترجعُ للعَصْرِ الرُّومَانِي، وكانتْ متصلةً ببعضِها، وكانتْ مُخَصَّصَةً لهروبِ الإمبراطورِ لَوْ حدثتْ ثوراتٌ مِنْ أهلِ الإسكندريَّةِ، وبعضُها كان مُوَصِّلًا للبحرِ!!"

بتعجبٍ يسترسلُ "حازم":

-"يسيرُ فيها الفارسُ ممتطيًا جَوَادَهُ رافعًا سيفَهُ، وأنَّ ارتفاعَها حوالي (٩) أمتارٍ، وبَعْدُها حوالي (٦) أمتارٍ تقريبًا، فيها بَقَايَا صهاريجِ للمياهِ، وبعضُ أجزاءِ للمقبرةِ الملكيَّةِ الَّتِي تمتَدُّ مِنْ تقاطعِ شارعِ "المَلِك فؤاد" مَعَ النَّبِيّ دانيال حَتَّى "كوم الدكة"، يعني نتكلَّمُ في عمقٍ يزيدُ عن (١٢) مترًا؛وهذا ما جعلَ الأرضَ في تِلْكَ المنطقةِ رخوةً، وتربتَها متخلخلةٌ؛ ولذَلِكَ الأرضُ تهبطُ كُلَّ فترةٍ؛ لأنَّها منطقةٌ مليئةٌ بالآثار!!"

"خالد" يزفرُ في ضيقٍ:

-"عَمَّ تبحثُ يا حازمُ، لا أفهمُكَ، ويبدُو لي أنَّ هُنَاكَ أَمْرٌ آخرُ تبحثُ عَنْهُ؟!".

يلتفتُ "حازم" إليه قائلًا:

-"هُنَاكَ مَثَلٌ صِينِيٌّ يقولُ: أنا أشيرُ إلى القمرِ، والأحمقُ ينظرُ إلى إصبعي؛ أعتذرُ يا صديقي، ولَكِنْ أقصدُ أنَّكَ لا تهتَمُّ بالتفاصيلِ، وصَدِّقْني أنا أسعى لتحقيقِ بحثٍ جيدٍ؛ ينالُ إعجابَ الدكتورِ؛ لذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ يومٍ بدأتُ قراءةَ كُلِّ ما يَخُصُّ الإسكندريَّة لا أكثرَ"

كان "خالد" لا يقتنعُ بكلامِ "حازم"، ولَكِنَّهُ أشارَ برأسِهِ في صمتٍ أنَّهُ يصدِّقُهُ.

*****

(١٠)

مَرَّتْ ساعات، والمُقَدِّمُ "نبيل سراج" يجلسُ في صمتٍ بإحدى الغرف، المكتبُ عليه حراسةٌ مِنْ رَجُلينِ مفتولي العضلاتِ بجوار مكتب الرَّجُلِ الوسيمِ.

كان الصمتُ يَعُمُّ المكانَ، لَكِنَّ عقل المُقَدِّمِ "نبيل" يمتلِئُ بالأفكار:

-"ماذا قال ذَلِكَ العجوزُ، وهو يموتُ؟!، وبماذا توعَّدني؟، كان يقولُ: إنَّ الجنَ سيطاردُني أينما كنتُ، بَلْ سيقتلُ عَائِلَتِي بالكاملِ!!"

-"أكيد هذا الرَّجَلُ مُخَرِّفٌ، هل يبحثُ هؤلاء الأجانبُ عَنْ عفاريتٍ، بَلْ عَن آثارٍ، المُهِمُّ الآنَ لماذا تركُوني هُنَا؟!، وطلبُوا مِنِّي الانتظارَ، لن أتنازلَ عَنْ أموالي أبدًا مهما حَدَثَ!!".

بالغرفةِ الأخرى كان الرَّجُلُ الوسيمُ يتحدّثُ مع السير "عدن" الخبيرِ في عِدَّةِ علومٍ، وهُوَ يَهُودِيّ فِرِنْسِيّ الجنسيَّةِ.

-"ماذا سنفعلُ الآنَ بَعْدَ حماقةِ ذَلِكَ الضَّخْمِ، فلَمْ نطلبْ مِنْهُ قتلَ الرَّجُلِ العجوزِ؟"

السير "عدن" في قلقٍ تظهر ملامحُهُ على وجهِهِ:

-"الشرطةُ ستحاولُ معرفةَ الجَانِي، وستضعُ حراسةً على المسجدِ، وهذا سيُعَطِّلُ العمليةَ بالكاملِ"

يضرب الرَّجُلُ الوسيمُ الطاولةَ:

-"أحمقُ، كان بإمكانه تطويعُ ذَلكَ العجوز بَدَلًا مِنْ قتلِهِ؛ فهُوَ رغمَ علمِه أنَّهُ لَيْسَ مِنْ جهةٍ أمنيَّةٍ؛ تعاونَ مَعَهُ، وأثناءَ صلاةِ الفَجْرِ لَمْ يظهرْ أيَّ مشاكلَ، بلْ كانَ طبيعيًا أمامَ المُصَلّينَ"

السير "عدن" في تعجبٍ:

-"إذًا لِمَا قتلَهُ ذَلكَ الأحمقُ، كُنَّا سنستفيدُ أكثرَ بوجودِهِ بالمسجدِ"

في ثقةٍ أكمل الرَّجُلُ الوسيمُ حديثَهُ:

-"هذا لأنَّ العجوزَ أبلغَهُ، بأنَّهُ لَيْسَ مِنْ جهةٍ أمنيَّةٍ، فهُوَ يعلمُ أنَّ هُنَاكَ الكثيرَ مِمَّنْ يسعون خلفَ تابوتِ الإسكندر؛ فأخرجَ مسدسَهُ، وقتلَ الرَّجُلَ، والآنَ ما يمكنُ فعله حضرة السير عدن؟!"

نظرَ إِليهِ في سخريةٍ قائلًا:

-"لماذا لا تطلقُ النارَ على "مسعد" مِثْلَ ذَلكَ الغَبِيِّ؟!؛ فَقَدْ كانَ الأمرُ صعبًا فعلًا داخلَ السردابِ والنفقِ، ولولا أَنَّنا كُنَّا مُدَرَّبِينَ على مِثْلِ هذا؛ لَمُتْنا؛ لقد خرجْنا مِن القنصليةِ عَنْ طريقِ السردابِ، أمَّا التابوتُ كان أمامَنا؛ لَكِنْ يحتاجُ لوضعِ خُطَّةٍ لإخراجِهِ دُونَ تلفٍ.

*****

جحظتْ عينا "أحمد"؛ وبدأ العرقُ ينسابُ مِنْ على رأسِهِ، وينزلُ كالسيلِ على وجهِهِ، أطرافُهُ كُلُّها ترتعشُ، وعقلُهُ توقَّفَ، بَلْ يمكنُ أنْ يكونَ فَقَدَ عقلَهُ، يحاولُ الحركةَ؛ فلَا يستطيعُ؟!

حاول أنْ ينطقْ؛ فلَمْ يستطعْ تحريكَ لسانِه؛ فهُنَاكَ جُثَّةٌ بجوارِ البابِ لرَجُلٍ عجوزٍ، وجُثَّةٌ أخرى لرَجُلٍ في منتصفِ العُمْرِ قُرْبَ المحرابِ، والدِّمَاءُ في كُلِّ مكانٍ، عَمُّ "رضوان" ممسِّكٌ بيَدِهِ ورقةً لونُها أحمرُ أَمْ أنَّ الدِّمَاءَ الَّتِي بيَدِهِ هي الَّتِي جعلتِ الورقةَ بهذا الشكلِ؟!

شعر "أحمد" بأنَّهُ سيفقدُ الوَعْي في تلْكِ اللحظةِ، يَرَى عَمَّ "رضوان"؛ ويَخْشَى أَنْ يسقطَ على جثتِهِ؛ لذَلِكَ تمالكَ نَفْسَهُ؛ ليستعيدَ وعيَهُ، قَبْلَ أنْ يفقدَهُ.

-"ما هذا؟!"

يسقطُ "أحمد" على الأرضِ، ويرى ورقةً بيَدِ الرَّجُلِ العجوزِ؛ يحاولُ أخذَ الورقةِ؛ ليقرأَ مَا فِيهَا، ولَكِنْ بمُجَرَّدِ أَنْ أمسكَها؛ وفتحَها؛ فَقَدَ وَعيَهُ بالكاملِ.

*****

"فارس" استيقظ متأخرًا؛ فهُوَ طوالَ الليلِ لَمْ ينمْ؛ لأنَّ والدَهُ دخلَ عليه غرفتَه؛ ليسألَهُ:

-"أَمَا زلتَ غاضبًا يا فارس؟"

يجيبُ عليه:

-"نَعَمْ يا أبي، ما زلتُ غاضبًا مِنْ تلك الأعمال الَّتِي تقومُ بها؛ فهِيَ حرامٌ، وما تفعلُهُ شَعْوَذَة ودَجَل"

هُنَا يغضبُ الأبُ؛ لَكِنْ يتمالكُ نَفْسَهُ قائلًا:

-"ما أقومُ به موروثٌ قديمٌ عَن أجدادي؛ ويساعد الناس كثيرًا؛ فأنَا لا أضرُّ أحدًا، وكَمْ مِنْ مَرّةٍ قلتُ لَكَ لو أنَّكَ تصدِّقُني!!؛ يمكنُني أَنْ أساعدُ

صديقَكَ "أحمد"، وأَنْتَ الَّذِي ترفضُ، فلماذا يا "فارس"، هَلْ لخوفِكَ أنْ أثبتَ صحةَ كلامي وقدراتي"

يقاطعُهُ "فارس":

-أَبِي ما حَدَثَ لـ"أحمد" لَيْسَ له علاقةٌ بالسِّحْرِ أو الجِنِّ"

يعلّقُ الأبُ:

-"مَنْ قال هذا، حبيبتُهُ اختفتْ في شارعِ النَّبِيِّ دانيال، وهذا لَيْسَ صدفةً، فكُلُّ يومٍ تسيرُ البناتِ بذَلِكَ الشارعِ، تختفي واحدةٌ مِنْهُنَّ، سأحكي لَكَ بُنَيّ:

-"اسمعْني جيدًا، لأنَّكَ مِن الممكنِ أنْ ترثَ قُدْرَتِي رغمًا عَنْكَ، هُنَاكَ مغارةٌ بالمغربِ تُسَمَّى "دانيال" نسبةً إلى النَّبِيِّ دانيال -عليه السلامُ- مرصودةٌ بالجِنِّ، ويتعلَّمُ فيها السَّحَرَةُ (الطلبة) أَقْوَى فنونِ السِّحْرِ، وقد تعلَّمَ أَبِي (جدُّكَ) هُنَاكَ"

-"هي تُعَدُّ أغربُ المغاراتِ والعجائبِ الَّتِي وُجدتْ على سطح الأرض، لأنَّها مغارةٌ مرصودةٌ، ولَمْ يستطعْ أحدٌ حَتَّى هذه اللحظةِ أَنْ يبطلَ هذا الرَّصْدَ، ويقصدُها الناسُ مِنْ مختلف بِقَاعِ الدنيا، لتعلُّمِ السِّحْرِ وفنونِهِ، ومِنْ عجائبِ هذه المغارةِ أنَّ سنَتَها تُقَسَّمُ إلى تسعةِ أشهرٍ كاملةٍ، ولَيْسَتْ (١٢) شهرًا، ويسدُ بابُ المغارةِ صخرةً عظيمةً تنكشفُ عنها فَقَطْ في يومٍ واحدٍ، وذَلِكَ مُنْذُ شروقِ الشمسِ حَتَّى غروبِها، حَيْثُ يدخلُها الرَّاغِبُونَ في تعلُّمِ السِّحرِ، مُصْطَحِبِينَ معهم مؤونةَ تكفيهم مِن النواشفِ الَّتِي لا تفسدُ، كالزَّبِيبِ، والجوزِ، واللوزِ، وما إلى ذَلِكَ مِن الموادِ، ويُقَالُ أَنَّهَا تَحْوِي

بداخِلها أحجارًا عظيمةً متباعدةً عَنْ بعضِها البعضِ، وغائرةً في الأرضِ، ويجري في منتصفِ المغارةِ نَبْعُ ماءٍ عذبٍ يستخدمُهُ السَّحَرَةُ المُقيمُونَ والمتعلِّمُونَ الجُدَدُ، وعلى كُلِّ صخرةٍ مِنْ هَذِهِ الصخورِ العظيمةِ يُوضَعُ الطلسمُ مع كافةِ التعاليمِ الخَاصَّةِ بكيفيةِ استخدامِهِ، وخِدمَتِهِ، وأورادِهِ، وأعدادِ قراءتِه، وكيفيةِ العملِ به، والاستفادةِ منْهُ"

ويلتقطُ الأبُ أنفاسَهُ المتلاحقةَ، ويكملُ:

-"يبقى الطالبُ خلال التسعةِ أشهرٍ التي يقضيها في هذه المغارةِ في تأديةِ ما يطلبه هذا الطلسمُ منْهُ، وينكشفُ له شيئًا فشيئًا؛ حَتَّى يرى خَادِمَهُ؛ ويتحدَّثُ مَعَهُ؛ ويأخذُ الخادمُ عليه العهودَ والمواثيقَ؛ ليَظَلَّ في خدمتِهِ؛ ويأتمرَ بأَمْرِهِ، وتختلفُ قُوَّةُ كُلِّ طلسمٍ وطريقتُهُ عَنْ قُوَّةِ وطريقةِ الطلاسمِ الأخرى، ومِن الجديرِ بالذِّكْرِ أَنَّ هُنَاكَ الكَثِيرِينَ الَّذِيْنَ يدخلُونَ هذه المغارةَ، ولَكِن الخَارِجِينَ منها قليلُونَ؛ فَمِنْهم مَنْ يموتُ مِن الرعبِ، ومِنْهم مَنْ يخطيءُ في قراءةِ أورادِهِ؛ ومَنْ أخطأَ؛ فإِنَّ الخادمَ يلطمُهُ لطمةً إِذَا نَجَا مِن الموتِ ؛أصابَهُ الجنونُ!!، وبَعْدَ انتهاءِ التسعةِ أشهرٍ تُفتحُ المغارةُ مَرَّةً أخرى، مِنْ شروقِ الشمسِ حَتَّى غروبِها، ويخرجُ مَنْ في الداخلِ"

يَرُدُّ "فارس":

-"لماذا لَمْ يدخلْها ملوكُ ورؤساءُ العالمِ؛ ليحكمُوا شعوبَهم بالسِّحْرِ مَدَى الحياةِ؟!"

ينظر الأبُ له في حِدَّةٍ:

-"هيهاتَ!، الخروجُ مِن المغارةِ لَيْسَ بسهولةِ دخولِها، وإنَّما يعتمدُ على قوةِ الطلسمِ الَّذي كان يخدمُهُ ذَلِكَ الشخصُ، فإنْ كان أقوى مِنْ حارسِ المغارةِ؛ فإنَّ الشخصَ ينجُو، ويخرجُ سالمًا مُعَافيًا، أمَّا إنْ كانتْ قُوَّةُ الطلسم أَقَلَّ مِنْ قُوَّةِ حارسِ المغارةِ المُوكَلِ ببابِها؛ فإنَّهُ مُعَرَّضٌ للموتِ أو الجنونِ!!"

ويلوِّحُ بيَدِهِ قائلًا:

-"ومِن السحرةِ المشهُورِينَ في سبعينياتِ القَرْنِ المنصرمِ، والَّذِيْنَ نَجُوا مِن المغارةِ العجيبةِ شَخْصَانِ عَرَبِيَّانِ: أحدُهما كان مِنْ "لبنان"؛ وقُتِلَ بَعْدَ خروجِهِ مِن المغارةِ بعِدَّةِ أشهرٍ؛ ووُجدتْ جُثَّتُهُ مُمَثَّلًا بها، أمَّا الآخرُ فقَدْ كان مِنْ "سوريا"، وكان يُلَقَّبُ بالدكتورِ، وكان أَسْحَرَ أهلِ زمانِهِ؛ لِمَا جُبِلَ عليه مِنْ عبقريةٍ مَكَّنَتْهُ مِنْ تطويرِ أساليبِهِ في هذا المجالِ، ولَكِن اختفى نتيجةَ الملاحقةِ المستمرةِ له مِنْ قِبَلِ السلطاتِ في بلدِهِ آنذَاكَ، ولَمْ يعرفْ أحدٌ عنه شيئًا بَعْدَ ذَلِكَ الوقتِ، هذا قَدَرُكَ يا بُنَيّ؛ لِذَلِكَ يجبُ أَنْ يبقى الأَمْرُ سِرًّا؛ حَتَّى لا نتعرَّضَ للقتلِ!!"

ظَلَّ الصمتُ لحظاتٍ؛ ليكملَ الأبُ:

-"هُنَاكَ طقوسٌ عَنْ طريقِ تقديمِ القرابينِ؛ مِنْ أَجْلِ السِّحْرِ، بسَفْكِ دماءِ الأطفالِ والعذراءِ، والَّتِي هي للجِنِّ والشياطينِ، لَكِنْ بُنَيّ بعضَ السَّحَرَةِ استطاعُوا الحصولَ على بَعْضِ تِلْكَ التعاويذِ دُونَ أَنْ يقيمُوا بداخِلِها؛ فكانُوا ينتظرُونَ عِنْدَ بابِ المغارةِ إلى أَنْ يُفتحَ، وفي حوزتِهم أوانٍ مليئةٌ بالشمعِ المُذَابِ، وفَوْرَ فتحِ البابِ يقومُونَ بصَبِّ هذا الشمعِ على الصخورِ، وبَعْدَ تجمُّدِهِ ينتزعُونَهُ، وهُنَاكَ فريقٌ آخرُ استخدمَ الطينَ".

"فارس" يحكُ ذقنَهُ في حيرةٍ: -"أَبِي ما علاقةُ النَّبِيّ دانيال بكُلِّ هذا؟!"

يجيب الأبُ:

-"النَّبِيُّ دانيال التقى بأحدِ مردةِ الشياطينِ، فدَارَ بينهما صراعٌ حادٌ حولَ الإيمانِ باللهِ والإلحادِ، فماتَ ابنُ الشيطانِ، ودُفِنَ في تلك المغارةِ، وللمغارةِ مدخلٌ لعلومِ السِّحْرِ كائنٌ في مِصْرَ، ويتصلُ بالمغربِ!!"

يقاطعُ "فارس" أَبَاهُ منزعجًا:

-"ماذا، مدخلٌ للمغارةِ بمِصْر؟!، أنا كنتُ ذاهبًا إلى شارع "النَّبِيّ دانيال"؛ لنجريَ بحثًا عَن الآثارِ والمنطقةِ ككُلٍّ مَعَ زُمَلَائِي"

الأبُ وقد ثارَ كالبركانِ في وجهِ ابنِه:

-"إيَّاكَ يا فارس، فإِنْ لَمْ تكنْ لَكَ قُوَى خَاصَّةً لا نعلمُها؛ ستنقلبُ الأمورُ، ويمكنُ أنْ تجدَ نَفْسَكَ داخلَ المغارةِ!!"

-"فارس":

-"لا يا أَبِي؛ فأَنَا لَيْسَ لي أيُّ علاقةٍ بالسِّحْرِ، ولَيْسَ لِي أيُّ قدراتٍ مِن الأساسِ، وأرجُوكَ لا ترعبْني بكلامِكَ هذا"

الأبُ يرفع إصبعه محذرًا:

-"يا فارس، الأمرُ لَيْسَ بالسهلِ، فأَنْتَ لَنْ تختارَ أنْ تكملَ مَكَانِي أَوْ لا؟، بمُوتِي ترثُ خَادِمِي مِن انِّ، وكُلَّ قُدْرَاتِي، لا مَفَرَّ مِنْ هذا، لذَلِكَ أحاولُ إقناعَكَ مِن سنينَ بالتعلُّمِ، حَتَّى تكونَ مستعدًا لذَلِكَ اليومِ، وأنَا ألحتُ عَلِيكَ هذه الأيَّامَ، خوفًا مِن اقترابِ الأَجْلِ، ولا تكونُ مستعدًا، فتهلكَ!!"

*****

(١١)

محلات الملابس في كُلِّ مكانٍ على اليمين واليسار، مِنْ بداية شارع "صفية زغلول"، وحَتَّى نهاية الشارع عِنْدَ تقاطع شارع "المَلِك فؤاد"، هُنَاكَ تجدُ سينما "أمير"، وكانتْ "كارما" تشاهدُ ما يُعرضُ مِنْ أفلامٍ داخل السينما مِنْ على الباب، ومعها صديقتُها "فاطمة"؛ حَيْثُ خرجتْ مِنْ مدرستِها: "صفية زغلول الإعداديَّة بنات"، في الساعة الثانية ظهرًا، والَّتِي تقعُ بشارع "السلطان حسين"، والسينما تُعتبرُ في طريقِ المنزلِ.

لاحظتْ "فاطمة" تغيُّرًا في وجهِ "كارما"؛ فَهِيَ معروفةٌ بروحِ المرحِ والضحكِ حَتَّى أثناءِ الدراسة، ولكن في حدود الأدبِ، وهَا هُمَا الآنَ أمامَ السينما، تبدُو شاردةَ الذِّهْنِ؛ لتسألَها "فاطمة":

-"مَا بِكِ يا صَدِيقَتِي اليومَ؛ فأَنْتِ حزينةٌ؟!"

تجيبُ "كارما":

-"لا شِيء، شاهدتُ بالأمْسِ فيلمًا رومانسيًا أَصَابَنِي بالاكتئابِ اسمه "عن العشق والهوى" لـ"منى زكي" و"أحمد السقا".

"فاطمة":

-"لقد تعاونا في عدة أفلام"

"كارما":

-"مِنْ أحلى الأفلام، لَكِنْ يصيبُني بالاكتئابِ؛ أنَّكَ تفقدُ شخصًا تحبُهُ أمرًا صعبًا، والأصعبُ أنَّكَ عندما تقابلُهُ، وأَنْتَ متعلّقٌ به؛ تجدَهُ غيرَ متعلّقٍ بِكَ، وبالرغمِ مِنْ أنَّكَ تعيشُ على حُلْمٍ ضائعٍ أو انتهى وقتُهُ؟!"

تظهرُ على "كارما" ابتسامةٌ خفيفةٌ في تلك اللحظة.

"فاطمة" تنظرُ لها؛ وتقولُ:

-"اليومَ عرفتُ أنَّكَ رومانسيَّةٌ رغمَ أنَّكَ تُظْهِري غيرَ ذَلِكَ، طولَ الوقتِ ضحك، ومزح، ولعب"

تضحكُ "كارما" قائلةً:

-"وقتُ الضحكِ ضحكُ، ووقتُ المزح مزحُ"

تلمعُ عينا "كارما"؛ فهِيَ تحاولُ إطفاءَ ألمًا يعتصرُها في وجهِ أختِها "هبة"، لا يفارقُها مُنْذُ الأَمْسِ، تحاولُ الهروبَ مِنْه بالحديثِ والضحكِ كعادتِها، ولَكِنْ بلَا فائدة.

تودّعُها صديقتُها "فاطمة"؛ فَهِيَ تسكنُ بـ"كوم الدكة"، أَمَّا "كارما" تكملُ طريقَها بشارع "المَلِكِ فُؤادِ"؛ لأَنَّها تسكنُ خَلْفَ مركزِ الإبداعِ.

*****

بَعْدَ لحظاتٍ تسرحُ بخيالِها مَرَّةً أخرى؛ لتأتي أختُها الكبرى على خاطرِها، والَّتي اختفتْ مُنْذُ ثلاثِ سنواتٍ دُونَ أنْ يعلمُوا عنها شيئًا، هُنَاكَ مَنْ قالَ:

-"إنَّها أُبتلعتْ بشارع "النَّبِيّ دانيال"، وظَنَّ البعضُ أنَّ عصابةَ تجارةِ أعضاءٍ بشريَّةٍ اختطفتْها"

تناجي "كارما" نَفْسَها متحيرةً:

-"ماذا حَدَثَ لَهَا؟!"

-"هل يمكنُ أنْ تعودَ؟!"

-"أنا أشتاقُ لرؤيتِها!!"

كانتِ الدموعُ تسقطُ مِنْ عيني "كارما" دُونَ أنْ تشعرَ، حَتَّى هي لَمْ تلاحظْ خطواتِ أقدامِها، إلى أينَ تأخذُها؟!، فهِيَ بذَلِكَ الشارعُ الَّذِي تتجَنَّبُ دخولَهُ كثيرًا، خشيةَ الاختفاءِ، مثلما حَدَثَ لأختِها الكبرى؟!

*****

اتَّجَهَ"حازم" و "خالد"، لأداءِ صلاة الظهر، ولَكِنْ تأخَّرُوا عن موعدِ الصلاةِ، فوجدُوا المسجدَ مغلقًا، "حازم" لَمْ يستغربْ كثيرًا، فمِن الطَّبِيعِيِّ أنْ يُغلقَ المسجدُ بَعْدَ انتهاءِ الصلاةِ، ولَكِنْ أمسكَ هاتفَهُ المحمولَ، وحاولَ الاتصالَ بأحدِ الأشخاصِ، ولَمْ يَرُدَّ عليه.

يسأل "خالد":

-"ماذا سنفعلُ الآنَ، أرى مِن الأفضلَ أخذَ جولةً بالشارعِ"

"حازم" في ضيقٍ:

-"اصبرْ يا خالد، فأَنَا أحاولُ الاتصالَ بخادمِ المسجدِ، ولَكِنَّهُ لا يَرُدُّ!!، لَكِنْ أَتَرَى هُنَاكَ شخصًا خارجٌ مِن البابِ؟!، لندخلَ نَحْنُ الاثنانِ إذًا".

يخرج الرَّجُلُ مِن البابِ المجاورِ للمسجدِ، وهو ينزلُ للبابِ الحديدِيّ الَّذِي بالأسفلِ.

"فارس":
-"بَعْدَ إذنِ حضرتِكَ أدخلُ لعَمِّ "رضوان"؛ فهُوَ يعرفُني"
يقاطعُ الرَّجُلُ كلامَهُ:
-"أنا مِنْ شركةِ (RT) لتطويرِ التراثِ المِعْمَارِيّ، المسجدُ مغلقٌ للترميمِ، ولا يوجدُ أحدٌ بالمسجدِ غيرِنا؛ للقيامِ بمهامِ عملِنا"
ويغلقُ البابَ خلفَهُ؛ ويقفلُ بقُفْلٍ حَدِيدِيّ، ويرحل.
ينظر "خالد" إلى "حازم" متعجبًا:
-"هَيَّا يا صَدِيقِي نبدأُ بسؤالِ البَائِعِينَ بدلًا مِن إضاعةِ الوقتِ هُنَا"
يسيرُ "حازم" في يأسٍ مع "خالد" ثُمَّ ينتبهُ "خالد" قائلًا:
-"ألم نتَّفِقْ على أنَّ كُلَّ واحدٍ يسألُ بمفردِهِ؛ سأسبقُكَ إلى الأمامِ؛ وأَنْتَ ابدأْ مِنْ هُنَا"
يقف "خالد" أمامَ أحدِ البَائِعِينَ كبارِ السِّنِّ، وينظرُ إلى الكِتَابِ وعنوانه، ويمسكُهُ، ويقرأُ مقدِّمَةَ أحدِ الكت؛ ليظهرَ أَنَّهُ يطالعُ الكِتَابَ.
يسألُهُ البائعَ:
-"عَمَّ تبحثُ؛ حَتَّى أعرضَ عَلَيكَ كما تريدُ؛ فلَيْسَ كُلُّ الكتبِ معروضةً هُنَا أمامَكَ"
يحاول "خالد" التركيز في شيءٍ مِمَّا يقولُهُ الرَّجُلُ الكبيرُ؛ لَكِنَّهُ يتلعثمُ في الكلامِ: -"أبحثُ عَنْ كتابٍ يتحدَّثُ عَنْ طلاسمِ الإسكندرِ الأكبرِ"
يَرُدُّ الرَّجُلُ:
-"لا يوجدُ كِتَابٌ بهذا الاسم؛ ولَكِنْ هُنَاكَ كُتُبٌ أخرى عن الإسكندرِ"

"خالد":

-"كيف لا يوجدُ كِتَابٌ بهذا الاسم؛ لِي صديقٌ اشتراهُ مِنْ مكتبةٍ بجوار سينما "أمير"، ويتحدَّثُ عن لعنةِ الإسكندرِ، واختفاءِ الفتياتِ بذَلِكَ الشارع؟!"

مَرَّتْ "كارما" في تلك اللحظةِ بالطريقِ، وهي دامعةُ العِينينِ؛ لتسمعَ في لحظة مباغتةٍ له تلك العبارة: "اختفاء الفتيات بذَلِكَ الشارع"

والرَّجُلُ العجوزُ يَرُدُّ:

-"لا أعلمُ شيئًا عن الكِتَابِ الَّذِي تحدّثُنِي عنه، ولَكِنَّ اختفاءَ البنات أمرٌ آخرُ، وإنْ أردتَ كِتَابًا يتحدَّثُ عَنْ ذَلِكَ؛ فهُوَ موجودٌ عندي؛ ولَكِنَّهُ غَالِي الثمنِ؛ لأَنَّهُ آخرُ نسخةٍ لَدَيَّ، هل تريدُهُ؛ فهُوَ غيرُ معروضٍ؛ فأنا أحتفظُ به لِمَنْ يريد كِتَابًا يدرسُ الموضوعَ بجديَّةٍ"

كلام الرَّجُلِ يثيرُ فُضُولَ "خالد"؛ ليقولَ له:

-"نَعَمْ أريدُهُ!!"

تقترب "كارما" في ذهولٍ إلى كُشْكِ الرَّجُلِ، يكملُ البائعُ:

-"هَو كِتَابُ "مغارة دانيال"، الكِتَابُ غَالِي عَلِيَّ (٢٠٠) جنيهٍ فَقَطْ"

"خالد" مستنكرًا:

-"أَلَيْسَ غاليًا؟!"

تتدخلُ "كارما": -"حضرتكَ لو لَمْ تحتاجْهُ؛ أنا أشتريه"

"خالد":

-"أنا أشتريتُهُ؛ لَكِنْ كنتُ أمزحُ"

تلمعَ عَيْنَا العجوزِ، فَهِي دُونَ أنْ تدري جعلتْ "خالد" يشتري الكتاب دُونَ تفكير، ثُمَّ مَدَّ "خالد" يَدَهُ بالنقودِ، ويأخذُ الكِتَابَ مِن البائع، وينصرفُ.

"كارما" تحدّثُ "خالد":

-"هَلْ مِن الممكنِ بَعْدَ قراءتِكَ للكِتَابِ أنْ تبيعَهُ لِي"

يَرُدُّ "خالد":

-"حضرتكِ مِن الممكنِ أنْ تشتري كتابًا غيرَهُ"

"كارما" في ثقة:

-"أنا سمعتُ البائعُ يقولُ: آخرُ نسخةٍ، لذلك أرغبُ في شرائِهِ مِنْكَ"

يبتسمُ "خالد":

-"عندما أنتهي مِنْ قراءتِهِ، أَعِدُكِ بأنْ أعطيهُ لَكِ، لَكِنْ دُونَ ثمنٍ، وترجعيه لِي، اتَّفَقْنَا"

تبتسمُ قائلةً: -"إذًا اسمحْ لي برقمِ هاتفكَ"

يعطيها "خالد" رقمَ الهاتفِ، فَهِيَ ذاتُ وجهٍ مَلَائِكِيّ.

كان "حازم" يحاولُ أَنْ يكملَ ما اتَّفَقَ عليه مع زملائه مِنْ سؤالِ البَائِعِينَ، حَتَّى لا يثيرَ قلقَهم، و"خالد" بالأخَصّ مَرَّةً أخرى، ولَكِنَّهُ وجدَهُ يقفُ مع فتاةٍ صغيرةٍ بنهايةِ الشارعِ ثُمَّ تركتْهُ، وانصرفتْ، ليتَّجِهَ نَحْوَهُ قائلةً:

-"خالد مع مَنْ تقفُ يا صديقي؟!"

يبتسمُ "خالد"، ويحكي ما حَدَثَ مع البائع وتلك الفتاةِ، لا يُبْدِي "حازم" أيَّ اهتمامٍ للموضوعِ قائلًا:

-"خالد لقد تحدَّثْتُ مع بائعٍ، وحَكَى لي عَنْ قصصِ اختفاءٍ للفتياتِ، وأنَّ هُنَاكَ أرواحًا تخطفُهُنَّ بالشارعِ؛ لتقديمِها قرابينَ بالأسفلِ، حَتَّى أنَّهُ مِنْ عدةِ أيامٍ شابٌ وقفَ يصرخُ على فتاةٍ بأعلى صوتٍ"

يظهرُ الذعرُ على وجهِ "خالد":

-"قرابين؟!؛ لمَنْ يقدِّمُونَ تلك القرابينَ، وفي أيِّ عصرٍ نَحْنُ؟!"

يكملُ له "حازم" في سكونٍ:

-الآلهةُ الَّتِي يعبدُونَها؛ أَلَيْسَ للجِنِّ دياناتٌ غيرُ الإسلامِ؛ فمِنْهم المؤمنُ، ومِنْهم الكافرُ، ومِنْهم المَسِيحِيّ، حَتَّى مِنْهم الهندوسِيّ"

"خالد" مستنكرًا:

-"لا يوجدُ جِنٌّ هندوسِيّ"

"حازم" بلغة المثقفِ:

-"مَنْ قال هذا، الجِنُّ يدينُونَ بكُلِّ الدياناتِ؛ لأنَّ لَدِيهم حريةَ الاختيارِ؛ فمِنْهم مَنْ يخطفُ مِن البشرِ؛ ليقدِّمَهُ قربانًا للآلهةِ التي يؤمنُ بها؛ حَتَّى يتقرَّبُ منها، وذَلِكَ معروفٌ في كُلِّ الدياناتِ، ولَكِنْ يختلفُ كُلُّ قربانٍ حَسْبَ الدِّيْنِ؛ فنَحْنُ المُسْلِمِينَ نُضَحِّي للهِ بالأغنامِ والماشيةِ، وقد تعدَّدَتْ أشكالُ القرابينِ البشريَّةِ قديمًا، وعُرِفَتْ لَدَى كثيرٍ مِن الحضاراتِ، كالفراعنةِ الذين قدَّمُوا كُلَّ عامٍ أضحيةً بشريَّةً (عروس النيل)؛ للحمايةِ مِن الفيضانِ"

وأردف متحمسًا:

-"وقدَّمَتْ شعوبُ "الأزتيك" و"المايا" قرابينَ بشريَّةً أيضًا، ولَكِن "المايا" شعوبٌ سكنتْ وسط أمريكا، و"الأزتيك" سكنتْ غرب المكسيك غالبًا، وهُمْ يختلفُونَ في تقديمِهم للنذورِ والقرابينِ الجماعيَّةِ يوميًا؛ إرضاءً للآلهةِ، خَاصَّةً لإلهِ الشمسِ، وإلهُ المطرِ يتمُّ إرضاؤُهُ بقرابينِ الأطفالِ؛ لضمانِ هطولِ المطرِ؛ في حينٍ يتمُّ إرضاءُ إلهِ الذرةِ بقتلِ عذراءَ؛ وسلخِها؛ وارتداءِ جلدِها!!، وما زالتْ هذه الطقوسُ قائمةً في عصرِنا الحديثِ لَدَى بعضِ أصحابِ الديانةِ البوذيَّةِ في الصين، وهي مستمرةٌ لَدَى كهنةِ اليهودِ أيضًا، وهُنَاكَ مَنْ يؤكِّدُ أَنَّ القرابينَ البشريَّةَ ما زالتْ تُقَدَّمُ بشكلٍ سِرِّيّ في عِيدِينِ لليهودِ هما: عيد "البوريم" في مارس، والمعروف بقرابين الشباب البالغين، وعيد "الفصح" في أبريل، ويكون بقرابين الأطفال الذين لا تزيدُ أعمارُهم على عَشْرِ سنواتٍ؛ فما رأيكَ يا خالد؟"

"خالد" في غير اقتناعٍ:

-"حَتَّى وإِنْ صَحَّ كلامُكَ؛ فهذا بعيدٌ عَنْ مشروعِ البحثِ، وأصبحتُ أشكُ فيما نَحْنُ نسيرُ فيه؛ هل سنحقِّقُ نجاحًا أَمْ لا؟!؛ كنتُ أتصوَّرُ أنْ نحظى بإعجاب الدكتور، أمَّا الآنَ لا أتصوَّرُ ذلك"

"حازم":

-"سنتحدَّثُ مع الدكتور"حمدي" في المشروعِ ككُلٍّ غدًا، وإنْ شاءَ اللهُ أقنعُهُ بما وجدَنا"

"خالد": "أَنْتَ حَتَّى الآنَ تنسي زملاءنا في المشروع؛ يجبُ أنْ نجلس معهم؛ لنتناقشَ"

"حازم" في ضيقٍ:

-"هم لم يأتوا في الغالبِ، ولم يتصلوا بنا؛ ولَكِنْ يا "خالد" اتصل بـ"فارس" أو "أحمد"، ولا توجد مشكلة، نتقابل غدًا".

كان "خالد" عاد إليه نَفْسُ الإحساسِ، أنَّ هُنَاكَ أمرًا آخرَ لا يفهمُهُ:

-"سأتصلُ بهم، وأبلغُكَ"

حاول "حازم" توضيح موقفِهِ:

-"يا صديقي المَرَّةُ السابقةُ انتظرتُ "أحمد"، ولَمْ يأتِ، واليومَ لَمْ يتصلا، ولَمْ نَرَاهم بالشارعِ؛ هذا يؤكِّدُ عدمَ جديتِهم في المشروع، ونَحْنُ لا نعرفُهما مِنْ قَبْلُ"

"خالد" يخاطبُ نَفْسَهُ:

-"حازم مُحِقٌّ في كلامِهِ"

مَرَّتْ لحظاتُ صمتٍ بين الأصدقاء؛ ليكسرَها "خالد" قائلًا:

-"صدقتَ يا حازم، أعدُكَ بالتحاور مع "فارس"؛ وأُرُدُّ عَلِيكَ"

"حازم"في حزنٍ:

-"لا يا صديقي فاتَ الأوانُ، فقَدْ كتبتُ أسماءَنا مع الدكتور "حمدي" كفريقٍ واحدٍ، لَكِنْ أقصدُ إنْ كانُوا غيرَ جَادِينَ في البحثِ؛ فعَلِيهم أنْ يتركُونا نبحثُ؛ وتقفُ أَنْتَ يا صديقي مَعِي"

يشير "خالد" برأسِهِ بالموافقةِ، رغمَ أَنَّهُ في حيرةٍ مِنْ أمرِهِ؛ فكلامُ "حازم" مَنْطِقِي، ولَكِنْ هُوَ لا يطمئنُ؛ لماذا لا يعلمُ؟!

*****

(١٢)

-"ظلامٌ شديدٌ لا يمكن أنْ أرى فيه كَفَّ يَدِي أَمْ أنا مغمضُ العِينِينِ، لا أعرفُ!، أحاولُ فتحَ عيُونِي، ولَكِنْ يبدُو الأمرُ صعبًا، بَعْدَ قليلٍ شعرتُ أنَّنِي لا أرى سِوَى الظلامِ، هل هذا كابوسٌ؟!، لا أعلمُ، ولَكِنْ ماذا؟!"

-"أينَ كنتُ، أحاولُ أنْ أتذَكَّرَ؟!، متى نمتُ؟ أيضًا لا أتذَكَّرُ، ما هذا؟!، صداعٌ يفتكُ برَأْسِي ..... جثثٌ ودماءُ!!"

"أحمد"ينتفضُ مِنْ على السريرِ وعينَاهُ مفتوحتَانِ بشدةٍ، يلتفتُ حوله يمينًا ويسارًا، رغمَ أنَّ أُمَّهُ بالغرفةِ وصديقَهُ "فارس"يحاولانِ تهدئتِهِ، ولَكِنَّهُ لا يراهم؟!

لحظاتٌ ثُمَّ تسري رعشةٌ بجَسَدِ" أحمد"، تجلبُ الأُمُّ حقنةً مهدئةً، قد وصفَها الطبيبُ، وتُؤخَذُ في حالةِ الضرورةِ، أو إذَا أصابتْهُ تشنجاتٌ مصاحبةٌ للعودةِ مِن اللاوَعْيِ، لحظاتٌ، ويهدأُ "أحمد" تمامًا.

يخرج "فارس" مِنْ غرفة "أحمد"، ليسألَ والدتَهُ:

"ماذا حدثَ لَهُ؟!"

الأُمُّ في حزنٍ عميقٍ كالبئرِ:

-"مُنْذُ يَوْمِينِ خرج "أحمد" الساعة العاشرة صباحًا للجامعة، وتقريبًا في الساعة الخامسة مساءً تلقَّيتُ اتصالًا بأنَّ "أحمد" في مستشفي خَاصَةٍّ بـ"محرم

بك"، وعندما ذهبتُ، وجدتُهُ فاقدًا للوعي، وعند سؤالِهم أجابوا: بأنَّ أستاذًا يُدْعَى "إبراهيم" وجدَهُ مغشيًا عليه في شارعٍ جَانبيّ مِنْ "محرم بك"، فأخذَهُ للمستشفى، وعندما تأكَّدَنا أنَّهُ بخيرٍ، أمسكَ الأستاذُ"إبراهيم" بهاتفِ "أحمد"، وفتحَهُ ببصمةِ اليَدِ، واتصلَ بحضرتكِ، وبَعْدَها رحلَ الرَّجُلُ؟!"

"فارس" في كلماتٍ تقطرُ أَسًى:

-"ماذا حَلَّ بـ "أحمد"؟!"

تكمل الأُمُّ حديثَها:

-"الطبيبُ أكَّدَ أنَّهُ بخيرٍ، ولَكِنْ يبدُو أنَّه تعرَّضَ لصدمة عصبيَّةٍ، نتيجةَ موقفٌ مَا، وأنَّهُ في الصباح سيكونُ بخيرٍ، وقالُوا: إنَّ الرَّجُلَ مشكورٌ دفعَ مصاريفَ المستشفى قَبْلَ أنْ يغادرَ"

وفي صباحِ اليومِ التَّالِي، عقاربُ الساعةِ تشيرُ إلى الحادية عشر صباحًا طلبُوا أنْ نغادرَ المستشفى، حَيْثُ أنَّ الحالةَ لا تستدعي البقاء.

"فارس" في دهشة:

-"لماذا حَتَّى الآنَ لَمْ يستعدْ وعيَهُ؟!"

الأُمُّ وهي تحملق جيدًا في وجه "فارس":

-"يا حبيبي أحضرتُ طبيبًا في الصباحِ قَبْلَ أنْ أكلِّمَكَ، وأكَّد أنَّهُ سليمٌ، وقَالَ نَفْسَ كلامِ المستشفى: (صدمةٌ عصبيَّةٌ)، لماذا لَمْ تقابلْ "أحمد" في ذَلِكَ اليومِ؟!"

يحِلُّ الصمتُ ضيفًا ثقيلًا في تلكِ اللحظاتِ، ثُمَّ ينطقُ "فارس":

-"أنا لم أخرجْ من البيت ذلك اليومَ، ولا حَتَّى أَمْسِ؛ حَيْثُ أُصبت بالبردِ، ولَكِنْ كنتُ قد اتَّفَقْتُ مع "أحمد" واثْنينِ مِن زملائِي؛ لنتقابلَ؛ لإجراءِ دراسةٍ ميدانيَّةٍ بشارِع "النَّبِيّ دانيال"؛ وعرفتُ مِنْهم بالأمْسِ أنَّ "أحمد" لَمْ يقابلْهم أو يتصلْ بِهِم"

الأُمُّ في استنكارٍ:

-"ومع ذَلِكَ يا فارس لَمْ تتصلْ؛ لتطمئنَ عليه؟!، واليومَ أنا مَنْ اتصلتُ بِكَ؛ ماذا حَدَثَ يا فارس لـ"أحمد" وهُوَ مَعَكَ؛ وتخافُ أَنْ تَحْكِي عَنْهُ؟!"

يحمَّرُ وَجْهُهُ، ويظهرُ عليه التوتُّرُ:

-"أنا لَمْ أَرَ" أحمد" ذَلِكَ اليومَ فعلًا؛ ولَكِنْ ما أعرفُهُ أَنَّهُ كان متوترًا وقلقًا مِنْ عدةِ أيَّامٍ؛ بسببِ أَنَّهُ لا يحبُ دخولَ شارِع "النَّبِيّ دانيال"، وفي ذَلِكَ اليومِ شاهدَ فتاةً كان يُحِبُّها، وهُوَ بالفرقةِ الأُوْلَى"

تغضبُ الأُمّ:

-"وهل هذا ما يقلقُهُ يا فارس؟!"

يكمل "فارس":

-"لا، الغريبُ أنَّ هذه الفتاةَ لا أعلمُ هل اختفتْ، أم الأرضُ بلعتْها بشارِع "النَّبِيّ دانيال"؟!، و"أحمد" هُوَ كَانَ مَعَها في ذَلِكَ اليومِ؛ وقال: أَنَّهُ رآها، وهي تختفي فجأةً بالشارِع، حَتَّى أهلِ الفتاةِ لا يعرفُونَ الحقيقةَ؟!؛ وهذا أصاب "أحمد" بالتوتُّرِ؛ لَكِنْ لَمْ أتخيَّلْ أَنَّهُ يسبِّبُ له صدمةً عصبيَّةً"

الأُمُّ في لهجةٍ حاسمةٍ:

-"يا فارس هذا مِنْ عدةِ أيَّامٍ، وعلى كلامِكَ كان موعدُكم للمقابلة؟!"

حاول "فارس" أنْ يفكِّرَ جيدًا قَبْلَ أنْ يفتحَ فَمَهُ؛ ليجيبَ:
-"بالتأكيدِ "أحمد" ذهبَ للشارعِ؛ لَكِنْ شعرَ بالتعبِ مَرَّةً أخرى بس تعب، أو أنَّهُ رأى حبيبتَهُ؛ لذَلِكَ أُصيبَ بصدمةٍ عصبيَّةٍ؛ هذا تَحْلِيلِي للموقفِ؛ وصَدِّقَنِي أنا أقولُ الحقيقةَ، ولو كانَ مَعِي كنتُ قلتُ، "أحمد" أعتبرُهُ أَخِي، و خَاصَّةً أنا وحيدٌ، وهُوَ نَفْسُ حَالَتِي؟!"
الأُمُّ في تعجبٍ:
-"هذه الفتاة ماتت بالفعل؟!؛ كيف رآها "أحمد"؟!؛ وما هذا الفألُ السيءُ؟!"
"فارس" يُردُّ:
-"لا أعلمُ هل رآها أَمْ يتوهمُ؛ لَكِنْ هُوَ يقولُ: رأيتُها وسطَ الشارعِ، أوقفَتْ تاكسي؛ وركبتْ؛ ومشيتْ، يعني لو حدثَ شيءٍ في الشارعِ مَرَّةً أخرى؛ كان الباعة سيتذكَّرُونَ شكلَ "أحمد"، و"أحمد" إنْ شاءَ اللهُ سيكونُ بخيرٍ؛ لا تقلقِي"
صوتٌ يأتي مِنْ داخل غرفة "أحمد"؛ تهرولُ الأُمُّ إلى غرفتِهِ، وخلفها "فارس"، تفتحُ الأُمُّ بابَ الغرفةِ؛ لتجدَ "أحمد" يحاول الجلوس؛ لَكِنَّهُ لا يستطيعُ؛ تقومُ بمساعدتِهِ؛ حَتَّى يعتدلَ، تَضعُ الوسادةَ خلفَ ظهرِهِ.
بَعْدَ أن اعتدل "أحمد" ينتفضُ مَرَّةً أخرى؛ ولَكِنْ هذه المَرَّةَ يتساءلُ:
-"مَنْ أتى بِي إلى هنا؛ لقد كنتُ بالمسجدِ؛ رأيتُ الدماءَ ورَجُلِينِ مَقْتُولِينِ؟!"
وقَبْلَ أنْ يكملَ كلامَهُ؛ يُغْشَى عليه مَرَّةً أخرى.

اتصلتْ أُمَّهُ بالطبيبِ، وشرحتْ له ما حَدَثَ.

يجيبُ عليها:

-"يجب أن تهدأ أعصابُهُ، اتركُوهُ، ولا أحد يسألُهُ عن شيءٍ"

الأُمُّ:

-"نَحْنُ لَمْ نسألْهُ عَنْ شيءٍ، ولَكِنْ عرفتُ بأمرِ حبيبتِهِ"

وتشرحُ للطبيبِ ما حكاه لها "فارس".

يُردُّ الطبيبُ، وهو يعدّلُ نظارتَهُ:

-"يا فندم، الحمدُ للهِ التشخيصُ صحيحٌ، ويبقى الالتزامُ بالأدويةِ في المواعيدِ المحدَّدَةِ، والحقنُ عِنْدَ الضرورةِ"

الأُمُّ في قلقٍ شديدٍ:

-"تمام، لَكِنْ هُوَ عندما استيقظَ مِن النومِ، تكلَّمَ عَنْ مسجدٍ، ودماءٍ، وقَتْلَى!!"

الطبيبُ في لهجة الواثقِ:

-"يا فندم هذه مُجَرَّدُ كوابيس أثناءَ نومِهِ، مِن الممكنِ أن تأتي لأي شخصٍ نائمٍ"

الأُمُّ ودموعُها كالمطرِ:

-"لَكِنْ هُوَ كانَ يحاولُ الوقوفَ، ويقعدُ، ويسندُ ظهرَهُ على الفراشِ، وانتفضَ، وراحَ يقولُ كلامًا عَن المسجدِ والدماءِ؟!"

الطبيبُ بَعْدَ نفاذِ صبرِهِ:

-"الكوابيس تأتي له طوالَ الليلِ، المُهِمُّ إنْ شاءَ اللهُ يَوْمَانِ، وسيتحَسّنُ"

حاول "فارس" تهدئتَها:
"أَنْتِ مِثْلُ أُمِّي، وهُوَ أَخِي، لَوْ أردتِ أنْ أباتَ مَعَهُ حَتَّى الصباحِ؛ لنطمئنَ على صحتِهِ"
تقاطعُهُ والدة "أحمد":
-"لا يا فارس، اذهبْ أَنْتَ لأبيكَ وأُمِّكَ؛ حَتَّى لا يقلقُوا عَلَيكَ؛ وأنا سأتصلُ بِكَ عندما يستطيعُ "أحمد" الكلامَ، مَعَ السلامةِ"
يشعر "فارس" بالحرجِ؛ ويستأذنُ بالانصرافِ.

*****

النومُ لا يأتي لأصحابِ العقول الَّتِي لا تهدأُ عَن التفكير بهذه الكلمات، حاول "خالد" تهدئة "كارما" الَّتِي تتصلُ كثيرًا بِهِ محاولةً الحصول على الكِتَابِ؛ وتحذِّرُهُ:
-"لَنَ تستطيعَ النومَ مُنْذُ الآنَ".
كان "خالد لا يفهمُ مدى إصرارها على قراءة الكِتَابِ؛ فهُوَ أصبح خائفًا، ولا يريد أنْ يكمل قراءتَهُ، واتصالُها الدائمُ يزيدُ مِنْ توتُّرِهِ، ومُحْرَجٌ أنْ يقولَ لها: إنَّ الكِتَابَ بالنسبةِ له مرعبٌ؛ حَتَّى أنَّها لا يجرؤ على استكمال قراءتِهِ؟!
شعرتْ "كارما" بضيقٍ شديدٍ؛ لعدمِ موافقةِ "خالد" على إعطائِها الكِتَابَ؛ فاضطرتْ أنْ تحكي لَهُ؛ كي يقدّرَ شعورَها:
-"يا خالد كان لي أختٌ أكبرُ مِنِّي، اختفتْ مِنْ ثلاثِ سنواتٍ بشارعِ "النَّبِيّ دانيال"؛ لذَلِكَ أريدُ أنْ أفهمَ أو أعرفَ أيَّ معلومةٍ عنها؟!"

ولحسنِ حَظِّ "خالد" أنَّ "كارما" تتحدَّثُ بالتليفون، ولَمْ تَرَ كَمَّ الفزعِ والخوف على وجهِهِ، حَتَّى أنَّهُ حِيْنَ أرادَ أَنْ يُرَدَّ عليها؛ تحشرجَ صوتُهُ ثُمَّ جاهدَ نَفْسَهُ؛ وأجابَها:

-"ما الفائدةُ مِنْ فَهْمِ أَوْ معرفةِ معلومةٍ عَنْ أختِكِ؟!"

أجابتْهُ "كارما"، وهي ساخطةً:

"أتمنَّى أنْ أعلمَ ماذا حَدَثَ لأُخْتِي؟!؛ مَنْ خطفَها؛ ولماذا فَعَلَ ذَلِكَ؟!"

"خالد":

-"الكِتَابُ لنَ يفيدَكِ أبدًا"

"كارما":

-"مَنْ قال أنَّهُ لنَ يفيدَني؛ سأقرأُ بنَفْسِي؛ لَعَلِّي أصلُ لشيءٍ!!"

ينفعلُ "خالد"، وهُوَ يَرُدُّ عليها:

-"الكِتَابُ يتكلَّمُ عَنْ جِنٍّ، وشياطينَ، وطلاسمَ، وتعويذاتٍ؛ لنْ يفيدَكِ صَدِّقِيني"

"كارما" متسائلةً:

-"إذًا هل هُنَاكَ تعويذةٌ تعيدُ أختي لي؟!"

"خالد" يتكلَّمُ، والحزنُ يفوحُ من لسانِه:

-"الكِتَابُ يذكرُ أنَّه يتمُّ خطفَ البناتِ؛ لتقديمِهم قرابينَ، لَكِنْ لا كلامَ عَنْ عودةِ تِلْكَ الفتياتِ المسكيناتِ!!"

تنهارُ "كارما" مِن البكاء، ويصمتُ "خالد" للحظاتٍ؛ لتنطقَ هي:

-"لَكِنْ أنا أحتاجُ لقراءةِ الكِتَابِ؛ لَعَلِّي أجدُ طريقةً لرجوعِ أُخْتِي"

يكملُ "خالد" حديثَهُ:

-"أنا لَمْ أنتهِ مِنْ قراءة الكِتَابِ، لَكِنْ أنا متأكِّدٌ مِنْ صحةِ رَأيِي، والموضوعُ لَهُ علاقةٌ بالجِنِّ والطلاسمِ، فقَدْ تختفِينَ أَنْتِ أيضًا!!، اهدئي حَتَّى لا نتعقَّدَ الأمورُ"

"كارما" في لهجةٍ حاسمة:

-"ألَمْ تقرأْ بعضَ صفحاتٍ مِن الكِتَابِ، ولَمْ نتعرَّضْ لأَذَى!!"

"خالد" وقد بدأَ يقتنعُ بمنطقِها:

-"بصراحةٍ أنا لَمْ أحاولْ قراءةَ أيِّ تعويذةٍ"

"كارما":

-"ولِمَ لا؟!"

"خالد":

-"أَوَّلُ أَمْرٍ: الطلاسمُ كلام غير مفهومٍ، ولَمَّا بحثتُ عَن اسمِ الكِتَابِ، وجدتُ مفاجأةً، أنَّهُ كِتَابٌ نادرٌ فَعْلًا، ومِنْ أَجْلِ خطورتِهِ، سأقومُ بحَرْقِهِ الآنَ"

"كارما" في توسُّلٍ:

-"لا، يا خالد أرجُوكَ"

يسمعُ صوتَ أنينِ "كارما" في الهاتفِ، يتعاطفُ مَعَها:

-"لَنْ أحرقَهُ"

"كارما" تتنفسُ الصعداءَ:

-"متى سأحصلُ على الكِتَابِ،لأرَاهُ فَقَطْ بين يَدِيَّ"

"خالد" يناجي نفسَهُ في حيرةٍ:

-"وما فائدةُ أَنْ تمسكَ بالكِتَابِ دُونَ قراءتِهِ؟!"

"كارما":

-"أشكرُكَ على ذوقِكَ مَعِي وصَبْرِكَ"

"خالد":

-"ولا شيء، مَتَى أقابلُكِ؟"

"كارما" في نشوةِ المنتصرةِ:

-"بَعْدَ ساعةٍ سأنتظرُكَ في محطةِ الرملِ"

"خالد" يشعرُ بلهفتِها:

-"لماذا العَجَلَةُ؟!، عمومًا أنا أسكنُ في كوم الدكة"

"كارما":

-"اتَّفَقْنا، ستجدُني بانتظارِكَ، ومَعِي أُخْتِي جميلة"

"خالد":

-"لنْ أتأخر - إنْ شاءَ اللهُ -"

استعدَّتِ للنزولِ، ورغمَ رفضِ "جميلة" أنْ تذهبَ معها في البدايةِ، إلَّا أنَّها وجدتُ نَفْسَها مضطرةً على الموافقةِ، فهُمَا في الساعة الثامنة مساءً، ولَنْ تسمحَ أُمُّها لها بالخروجِ دُونَ أختِها.

مَرَّتَا على محلاتِ الملابسِ، والحقائبِ، والأحذيةِ، غريزةُ الأنثى في التَّسَوُّقِ والشراءِ اختفتْ مع انشغالِهما بقربِ معرفةِ حقيقةِ اختفاءِ أُخْتِهم الكبرى.

وصلتَا إلى ميدان "سعد زغلول"؛ وجدُوا "خالد" بانتظارِهما؛ وتعرَّفَتْ "جميلة" عليه، وبَعْدَ أنْ شرحتْ "جميلة" الموضوعَ بالكاملِ؛ وأوضحتْ أهميةَ الكِتَابِ بالنسبة لهما؛ استجابَ لطلبِ استعارةِ الكِتَابِ؛ لَكِنَّهُ أَكَّدَ على خطورةِ مضمونِهِ، وعدمِ استخدامِ أيِّ تعويذةٍ؛ حَتَّى لا تُصَابا بالأذى أَوْ تموتَا!!

تعهَّدَتِ الفتاتانِ بالالتزامِ، ثُمَّ أخذتَا الكِتَابَ؛ وانصرفتَا في هدوءٍ.

*****

(١٣)

-"أقسمتُ عليكم يا مُلُوكَ الجِنّ أنْ تأتُوا لي بخادمٍ، وأنْ تطيعُوا أَمْرِي دُونَ سؤالٍ، أنا صاحبُ الأمرِ، وأنتم عليكم السمع والطاعة، مَنْ لا يرغبُ منكم في تلبيةِ ندائي؛ هُوَ مِنْ أعدائي؛ ويمتْ بدَائِي مَنْ يعاندُني، أو أقتلُهُ بيَدِي؛ وسأرسلُ عليه سَخَطِي أينما كان، وفي أيّ زمانٍ".

"حازم" قرأ تِلْكَ التعويذةَ محاولًا الاستعدادَ لِمَا سيواجِهُ أمامَ مدخلِ (مغارة دانيال)؛ فأُغْشِي على "حازم" لمدةِ (٣٠) ثانيةً، وكان جسدُهُ يرتعشُ بقوةٍ خلالَ تِلْكَ الثواني، بَلْ أنَّهُ حاولَ أنْ يسافرَ لـ (المغرب)؛ ولَكِنْ رفضتْ أسرتُهُ؛ لذَلِكَ أصبح أملُهُ الوحيدُ الوصولَ لمدخلِ (مغارة دانيال) مِنْ الإسكندريَّة.

خلالَ أعوامٍ حاول مرارًا وتكرارًا أنْ يكونَ صاحبَ شهرةٍ في مجالِ الآثارِ، ولاحظَ أنَّهُ دائمًا ما يَتِمُّ الربطُ بين اكتشافِ الآثارِ والمشايخِ الَّتِي تستخدمُ الجِنَّ؛ لمعرفةِ أماكنِ التنقيبِ عَنْ الآثارِ، والتعويذةِ الَّتِي تَفُكُّ رصدَ الجِنّ لِتِلْكَ المقابرِ، عَنْ طريقِ إراقةِ دِمَاءٍ؛ بذبحِ طفلٍ، أو استخدامِ اللَّبَنِ، وتمزيقِ المصاحفِ، وغيرِها مِن الطرقِ الَّتِي تكفرُ باللهِ.

وقد كُتبتْ تِلْكَ التعويذةُ على مقبرةٍ:

(كُلُّ مَنْ يحاولُ العبثَ بمقبرتِي هَذِهِ، لدغتْهُ الأفعى، ويلتهمُهُ التمساحُ، ويسحقُه فرسُ النَّهْرِ)

وبَعْدَ كتبٍ كثيرةٍ قرأها قَرَّرَ أنْ يتجنَّبَ ذَلِكَ، بدخولِ (مغارة دانيال)؛ ليتعلَّمَ فنونَ السِّحْرِ؛ ليسبقَ الجميعَ باكتشافاتٍ عظيمةٍ، وتحقيقِ ثراءٍ ضخمٍ في زمنٍ قِيَاسِيّ!!

ولَكْن إِنْ حاول استخدام بعض التعويذاتِ عَنْ جهلٍ بقوةِ تلك الطلاسمِ؛ يكونُ له ضررٌ عليه، -وإنْ كان بسيطًا-، ويمكن أنْ تُمرَّ مرورَ الكرامِ مِثْلَ اليومِ أُغْشِي عليه.

بدأ يسألُ نَفْسَهُ:

-"هل نجحتْ خُطَّتِي في ترجمةِ الطلسمِ، أكيد بدليلِ حضورِ الجِنِّ للمكانِ؛ ولماذا اختنقتُ إذًا؛ لا أفهمُ حَتَّى الآنَ، ولَكِنْ ما أتمناه هُوَ: الوصولُ لتِلْكَ المغارةِ بدلًا مِن المحاولاتِ اليائسةِ الَّتِي أقومُ بها، وأصبحَ دخولُ مسجدِ "عَبْدُ الرَّزَاقِ" أمرًا ضروريًا، ولا يحتملُ التأجيلُ، ولَكِنْ لولا وَضْعُ التطويرِ والترميمِ، وخَاصَّةً بَعْدَ اتِّفَاقِي مع خادمِ المسجدِ؛ أَلَيْسَ مِن الممكنِ دخولُها ليلًا دُونَ أنْ يشعرَ أحدٌ؟!، ولَكِنَّ الخادمَ بَعْدَ حوارٍ طويلٍ عن مشروعِ البحثِ؛ بكُلِّ بساطةٍ عَرِفَ ما أريدُ، وأبلغَنِي بما يدورُ في ذِهْنِي؛ وكشفَ عَنْ نَيَّتِي؛ وطلبَ مِنِّي إحضارَ صديقٍ مَعِي، وهُوَ سيساعدُنِي للوصولِ لمدخلِ المغارةِ"

-"ماذا حَدَثَ إذًا؛ هَلْ كان لا يعرفُ شيئًا عَنْ أمرِ ترميمِ المسجدِ، أَمْ هُنَاكَ أمرٌ آخرُ يدورُ داخلَ المسجدِ؟! ؛كُلُّ ما عَلِيَّ الآنَ هو: محاولةُ دخولِ

المسجدِ دُونَ أَنْ يشعرَ بي أحدٌ، والبحثُ عَنْ مدخلِ المغارةِ، حَتَّى بمُفْرَدِي؛ فالأمرُ يستحِقُّ العناءَ!!

*****

وبَعْدَ أنْ خرج "فارس"؛ ظَلَّ "أحمد" لعِدَّةِ ساعاتٍ نائم، حَتَّى استيقظ في الساعة الواحدة صباحًا، بينما تجلسُ والدتُهُ بجوارِهِ على الكرسي، وقد استردَّ عافيتَهُ؛ واستفاقَ مِنْ تلْكَ الغيبوبةِ، لَكِنْ لا يعرفُ كيفَ وَصَلَ البيتَ، وأينَ كانَ؟!، يشعرُ بأنَّ ما شاهدَهُ في المسجدِ كابوسٌ مخيفٌ، لا يريدُ التحدُّثَ عنه، أو يَخْشَى تذكُّرُهُ، نَادَى "أحمد" على والدتِهِ؛ لتجيبَهُ، وهي تبتسمُ:

-"حمدًا للهِ على سلامتِكَ يَا أحمد"

تقومُ مِن الكرسي ثُمَّ تحتضنُهُ، وتقبِّلُ جبينَهُ؛ فقَد اشتاقتْ لسماعِ صوتِهِ:

-"لقد أشتقتُ إلَيكَ كثيرًا، وشعرتُ بالغربةِ؛ لقد مَرَّتْ علَيَّ أيامٌ عصيبَةٌ أثناءَ مَرَضِكَ"

يبدُو على "أحمد" الذهولُ، ويسألُ والدتَهُ:

-"ماذا حَدَثَ لي بالأَمْسِ؟!؛ أنَّنِي لا أتذكَّرُ شيئًا؟!"

الأُمُّ في لهجةٍ حانيةٍ:

-"أهم شيءٍ: أنَّكَ بخيرٍ الآنَ"

"أحمد"وهو يتحسسُ رأسَهُ:

-"أُمِّي أريدُ أنْ أعرفَ الحقيقةَ كاملةً"

الأُمُّ:

-"أُغْشِي عَلَيكَ في الشارع بـ"محرم بك"، ورَجُلٌ صالحٌ نقلَكَ للمستشفى، واتَّصَلَ بِي مِنْ هاتفِكَ ؛ وذهبتُ؛لأخرجَكَ مِنْ هُنَاكَ، والطبيبُ قال: إنَّكَ بخيرٍ، وربما تعرَّضْتَ لصدمةٍ مَا؟!"

"أحمد" في خوف:

-"أنا بخير، لَكِنْ ما أذكرُهُ أنَّنِي فقدتُ الوعي في شارِعِ النَّبِيّ دانيال"

الأُمُّ تحملِّقُ في ابنِها:

-"إذًا صَدَقَ "فارس"، أَنْتَ أحببتَ فتاةً، واختفتْ مِنْ ثلاثِ سنواتٍ في ذَلِكَ الشارِعِ، ورأيتَ فتاةً أخرى تشبهُها"

يصمتُ "أحمد" لبضعِ دقائقَ، وهو ينظرُ لأُمِّهِ:

-"لا أعرفُ يا أُمِّي، لَكِنْ أنا متأكِّدٌ أنَّها هي، وعندما رأتْنِي خافتْ مِنِّي؛ وركبتْ تاكسي، ورغمَ عِلْمِي بمكانِ منزلِها؛ فقَدْ خافتْ أنْ أذهبَ إلى منزلِها؛ لأسألَ عنها أو أراها، وهذا الموضوعُ سَبَّبَ لي ضغط، لَكِنْ لَيْسَ لدرجةِ أنْ يُغْشَى عَلِيَّ في الشارع؟!"

الأُمُّ تشيرُ برأسِها:

-"كيف تفسِّرُ مرضَكَ المفاجِيء؟!

"أحمد" وهو يراجعُ ذاكرتَهُ المشوشةَ:

-"شعرتُ باضطرابٍ وقلقٍ مِنْ دخولِ شارِعِ النَّبِيّ دانيال؛ لذَلِكَ دخلتُ المسجد؛ لأُصَلِّي، ويطمئنُ قَلْبِي؛ فوجدتُ رَجُلِينِ مَقْتُولِينِ؛ فأُغْشِي عَلِيَّ!!"

الأُمُّ في استنكارٍ:

-"لَمْ يسمعْ أحدٌ بما تقولُ، وأَنْتَ فقدتَ وَعْيَكَ في "محرم بك"، وما سببُ قلقِكَ وقتَها؟!"

-"أحمد" والعرقُ ينسالُ من جبهتِهِ ككرةِ "البولينج":

-"كنتُ قلقًا مضطربًا، بسببِ خَوْفِي مِنْ مقابلتها في شارع النَّبِيّ دانيال"

تقاطعُهُ والدتُهُ:

-"كلامُكَ نَفْسُ كلامي وكلام "فارس"، الفتاةُ الَّتِي رأيتَها تضغطُ ذكرياتُها عَلِيكَ، وإيَّاكَ أنْ تذكرَ لأحدٍ أمرَ القَتِيلِينِ، وركِّزْ في مستقبلِكَ، وانْسَ الفتاةَ"

"أحمد" في استسلام الأسيرِ في الحربِ:

-"لا أعرفُ ماذا أقولُ، قد يكون القلقُ سببُ ما أعانيه الآنَ؟!"

الأُمُّ، وهي تربتْ على كتفيهِ:

-"أكيد يا حبيبي، أَنْتَ أصلًا أُغْشِي عَلِيكَ في "محرم بك"، لا تجعْلِني أخافُ أكثرُ مِنْ ذَلِكَ، في الصباحِ إذا كنتَ في حالةٍ جيدةٍ، اذهبْ إلى الجامعةِ"

"أحمد" يبتسمُ في وجهِ والدتِهِ:

-"إنْ شاءَ اللهُ غدًا أذهبُ للجامعة، والآنَ أتَّصِلُ بـ"فارس"، حَتَّى أقابلَهُ، ونذهبَ غدًا سَوِيًا، وأعلمُ ماذا فعلُوا في مشروعِ البحثِ"

تبتسمُ الأُمُّ ابتسامةً كالسحابِ:

-"هذا ما أريدُهُ يا أحمد، اتركْكَ الآنَ، لتستريحَ، ولَكِنَّ عقاربَ الساعة تشيرُ إلى الثانية صباحًا، فهَلْ "فارس" مازَالَ مستيقظًا؟!"

"أحمد" يهمسُ:

-"أكيد نائم الآنَ، سأتَّصِلُ بِهِ في الصباح"

*****

أمطارٌ غزيرةٌ لا تتوقفُ، تصاحبُها رياحٌ قويَّةٌ تطيرُ مَعَها الأمطارُ كالنسيمِ، تصدرُ صوتًا له أنينٌ يعشقُهُ الساكنُونُ، تكادُ تخلعُ أغصانُ الأشجارِ، بينما تمايلُ جذوعُ النخيل، رغبَ "حازم" في التسلُّلِ للمسجد قَبْلَ صلاةِ الفِجْرِ، ليتراجعَ مِنْ شدةِ الأمطارِ عَمَّا يدبّرُ لَهُ، ويؤجّلُهُ لليومِ التَّالِي، أَمَّا اليومَ فيجلسُ كعادتِهِ في (تراس البلكونة) يشربُ قهوتَهُ، ويشاهدُ المطرَ حَتَّى يحينَ موعدُ نزولِهِ إلى الجامعةِ، رَنَّ هاتفُهُ المحمولُ، فيَرُدُّ:

-"خالد صباح الخير"

"خالد":

-"صباح الخير يا حازم، اليومَ إنْ شاءَ اللهُ "فارس" سيأتي للجامعة، لنرى حلًا لمشروعِ البحثِ"

"حازم" في جديةٍ:

-"سأشربُ قهوَتِي، وأذهبُ للجامعةِ"

"خالد":

-"مع السلامة"

يبتسم "حازم" في سخريةٍ، فهُوَ أصبحَ لا يريدُ أنْ يكملَ معهم المشروعَ، ولَكِنْ، وهو يتأَمَّلُ ذَلِكَ الجَوَّ الرائعَ، يسألُ نَفْسَهُ:

-" هل مِن الممكنِ أنْ أستفيدَ منهم، وكيفَ وهُمْ مُجَرَّدُ كُسَالَى، لا يسعون لشيءٍ، حَتَّى المشروعُ الَّذِي يَخُصُّهم لا يبذلُونَ فيه جهدًا؟!، هَلْ هُمْ أغبياءُ، ويمكن ترويضَهم؟!، والآنَ يجبُ مغادرةُ المنزلِ، لألحقَ بهم في الجامعةِ" .

"فارس" يتصل به "أحمد":

-"أنا بخير يا فارس، وأنا في طريقي للجامعة"

"فارس" في لهجة القائد:

-"إذًا نتقابلُ في المُدَرَّجِ في المحاضرةِ الأُولَى".

وبالفعلِ تقابلَ الأربعةُ داخلَ مُدَرَّجِ الكليةِ، كان الأمرُ صعبًا على الجميع، فكُلُّ واحدٍ فيهم لَدِيهِ حَذَرٌ يخفيه عن الآخرِ؟!

"أحمد" يتوجَّهُ إلى شارع "النَّبِيّ دانيال"، ليفتشَ عَنْ شبحِ حبيبتهِ المفقودةِ، أو شبحِ جُثَثِ القَتْلَى!!

"فارس" يَخْشَى أنْ يجدَ نَفْسَهُ أمامَ مدخلِ (مغارة دانيال)، لتعليمِ السِّحْرِ أو يكونُ سببًا في فتحِ تِلْكِ المغارةِ، فيهلكُوا!!

"خالد" يخافُ مِنْ مواجهةِ "فارس"، بطلبِ تغييرِ مشروعِ البحثِ، كما طلبَ "حازم" مِنْهُ، ومرتاب في تصرفات "حازم"؟!

"حازم" أستاءَ منهم جميعًا، لذَلِكَ كانَ حذرًا مِنْ تِلْكَ المقابلةِ، وخَاصَّةً أَنَّهُ يفكِّرُ كيفَ يستخدمُهم لخدمةِ هدفِهِ، دُونَ علمِهم، فالأمرُ لَيْسَ بالسهلِ؟!

كانتْ تنتظرُهم مفاجأةٌ داخلَ المحاضرةِ، لَمْ تكنْ تخطرُ ببالِهم أبدًا.

الدكتور "إبراهيم" يبدأ محاضرتَهُ..

-"بالتأكيدِ اليومَ المحاضرةُ هَامَّةٌ جِدًّا، ويجبُ على الجميعِ الإنصاتُ جيدًا: ما هُوَ السردابُ؟"، السردابُ عبارةُ عَنْ ممرٍ أَوْ دهليزٍ، والماسورةُ القائمةُ بجنوبِ المصطبةِ يستقرُّ بها التمثالُ الجنائزِيّ، وكان "السردابُ" يتصلُ بقاعةِ القرابينِ، بواسطةِ الفتحةِ الكامنةِ بالتمثالِ الجنائزِيّ؛ لمشاهدةِ مراسمِ القرابينِ" يشرب كأسًا من الماء، ويقولُ:

-"وإذا كان موجودًا عِدَّةُ سراديبَ للموقعِ؛ فيجبُ فحصَ السراديبِ جيدًا، وإذا أردتَ دخولَ أحدِ السراديبِ؛ فأفضلُ طريقةٍ للتأكُّدِ مِنْ خلوِهِ مِن الأنفاخِ، هي: فحصُهُ مِن الأعلى بطريقةِ "الفراغات المركبة"، كُلُّ نِصْفِ مترٍ مِنْهُ ؛ فإذا وجدَنا فراغًا تَحْتَهُ؛ فهُنَاكَ احتماليَّةٌ لوجودِ نَفَقٍ"

يشيرُ ناحية "البروجكتور":

-وبالنسبةِ للسراديبِ الرومانيَّةِ فَهِي تختلفُ حسبَ المكانِ الموجودةِ فيه؛ بمعنى أَنَّ الحضارةَ الرومانيَّةَ كانتْ متسعةً جِدًّا، وطرقُ البناءِ كانتْ تختلفُ مِنْ منطقةٍ لأخرى، لَكِن الأمرَ الوحيدَ العَامَّ هُنْا فى أيّ حضارةٍ، هو: أَنَّ في حالةِ وجودِ سردابٍ أو بئرٍ مردومٍ برمالٍ ناعمةٍ؛ يجبُ إخراجُ هذه الرمالِ، وبَعْدَ تفريغِ السردابِ مِن الرمالِ قُمْ بغسلِ الجدرانِ بصورةٍ جيدةٍ؛ بَعْدَها فَتِّشْ عن أيّ فراغاتٍ خلفَ الجدرانِ، بواسطةِ الطَّرْقُ عليها؛ ومِنْ تردُّدِ الصوتِ تستطيعُ اكتشافَ الفراغاتِ؛ وبالتَّالى تصلُ للمدخلِ المطلوبِ، لَكِنَّ فى بعض الأحيانِ يكونُ المدخلُ إلى الكنزِ في الأرضيةِ الخَاصَّةِ بالسردابِ؛ وهُنَا يكونُ أمامَكَ أمرٌ مِن اثنينِ، وهُمَا:

الأوَّلُ: وجودُ مصاطبَ أَوْ بناءٍ حَجَرِيّ، أَوْ طِينِيّ داخلَ السردابِ يأخذُ شكلَ مصطبةٍ (باللهجة المصرية مصطبة، تعنى: بناء على شكل مستطيل أو مُرَبَّع يرتفعُ عن الأرض قليلًا؛ للجلوس عليه)، هذه المصطبةُ تكونُ الرمالُ أسفلَها بمسافةٍ لا تتعدَّى الـ(٥٠) سنتيمترًا، وتكونُ رمالًا هشةً يَتِمُّ رفعُها؛ للوصولِ إلى السدةِ الَّتِي تشكِّلُ مدخلَ الكنزِ.

الثاني: إذا لَمْ تجدْ مصاطبَ؛ فَعَليكَ سِوَى تدقيقِ النظرِ في الأرضِ؛ ستجدُ أنَّ هُنَاكَ جزءً مِن الأرضِ هشًّ، وترابُهُ أو رمالُهُ غيرُ متماسكةٍ؛ احفرْ إذًا"

فريقُ البحثِ يتابعُ الدكتور "إبراهيم" في صمتٍ:

-"وقد يحدثُ في بعضِ الكنوزِ الرومانيَّةِ قريبةِ العهدِ بالعصرِ الفِرْعَونِي أنْ يكونَ المدخلُ في الأرضِ، وعلى العكسِ يكونُ صلبًا جِدًّا، وفى هذه الحالة لا ترهقْ نَفْسَكَ في تكسيرِهِ؛ لَكِنْ احفرْ بجانبِهِ؛ ستجدُ الأرضَ أسهلَ ثُمَّ قُمْ برفعِ هذا الجزءِ الصلبِ بِلَا تكسيرٍ وإرهاقٍ؛ تجدُ ضالتَكَ أيضًا، لَكِنْ أَوَّلًا أَخِي فَتِّشْ في الجدرانِ عن فراغاتٍ أو خطوطٍ رفيعةٍ جِدًّا، لا تتعدَّى السنتيمتر، وقد تشكِّلُ مدخلًا على شكلِ حرفِ (U) لَكِنْ مقلوبًا أو على شكلِ مُرَبَّعٍ، وهذه تُسَمَّى بالخزنةِ الرومانيَّةِ، والهدفُ منها هو: تضليلُ الباحثِ وإطماعُهُ؛ لأخذِ ما فيها، وتركِ الكنزِ الأَصْلِيّ، لَكِنْ هذا يكونُ في حالاتٍ نادرةٍ، وفي بعض الحالات النادرة إذا كان الكنزُ يَخُصُّ أصحابَ الشأنِ العَالِي يُوضَعُ كُلُّ هذا الرملِ داخلَ السردابِ؛ لكي يتعمَّقَ الباحثُ ويتوغلُ، وتكونُ الفتحةُ الأصليَّةُ في مدخلِ السردابِ

مِن الداخلِ؛ لذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تخرجَ الرمالَ؛ انظرْ في أرضيةِ مدخلِ السردابِ، عَليكَ بالحفرِ حوالي (٣٠) سنتيمترًا منها، فإذا رأيتَ شكلَ التربةِ قد تغيَّرَ إلى رمالٍ أنعمُ مِنْ تِلْكَ الموجودة في السطحِ، خُصوصًا لو كانتِ الأرضيَّةُ صخريَّةً، وأرضيةُ المدخل كانت طبقةً رقيقةً مِن الصخرِ، على خلافِ أيِّ مكانٍ آخر؛ فقُمْ بإزالةِ الطبقةِ الصخريَّةِ البسيطةِ الَّتي لن تتعدَّى الـ(١٥) سنتيمترًا؛ وأخرجِ الرمالَ مِنْ تحتِها، وفي كُلِّ الأحوالِ سواءً كان المدخلُ في الخارج أو الداخل؛ فإنَّ الرمالَ الَّتي ستجدُها محاطةً بجدرانٍ مِنْ نَفْسِ طبيعةِ الجبلِ، وإذا كانتْ منطقةً مسطَّحَةً ستجدُ الرمالَ إمَّا محاطةً بطبقةٍ مِن الطينِ أو بحجارةٍ مبنيةٍ حَوْلَها"

يلتقط الدكتور"إبراهيم" أنفاسَهُ:

-"ملاحظات أخيرة:

١- اتَّخِذْ كُلَّ الاحتياطاتِ الممكنةِ عِنْدَ الدخولِ.

٢- احذرِ المصائدَ والفخاخَ بَعْدَ التهويةِ للسردابِ، وإذا كان السردابُ طويلًا احرصْ على حملِ شمعةٍ مشتعلةٍ عِنْدَ الدخولِ؛ للتأكُّدِ مِن استمراريَّةِ وجودِ الأكسجين.

٣- في حالةِ شعورِكَ بالدَّوَارِ أو الغَثَيانِ؛ أخرجْ فورًا!!!.

٤- يُفَضَّلُ أنْ تكونَ مربوطًا بحبلٍ؛ حَتَّى يكونَ هُنَاكَ اتصالٌ حَرَكِيٌّ مع مُرَافِقِيكَ عِنْدَ فقدانكَ الاتصالُ الصَّوْتِي لأيِّ سببٍ.

٥-عملُ فحصٍ على قَدْرِ الإمكانِ للمنطقةِ المتقدِّمَةِ أمامَكَ قَبْلَ المرورِ بها؛ تفاديًا للأخطارِ.

٦-استعمالُ الإنارةِ الكافيةِ: (اليَدَوِيَّةُ تُحملُ باليَدِ، والأخرى تُعَلَّقُ على الرأسِ)"

يسرح الدكتور "إبراهيم"بخياله :

-"إنَّ الأنفاخَ اليَدَوِيَّةَ الَّتِي صُنِعَتْ بأَيْدِي صَانِعِي الأنفاخِ إذا لم تُرْجَعُ إلى مكانِها مِنْ جديدٍ، تُستعملُ للقتلِ مَرَّةً واحدةً فَقَطْ؟!، لذَلِكَ نعتبرُ الصخرةَ الساقطةَ نفًا "يدويًا"، ولا نعتبرُ فتحةَ البئرِ القَلَّابِ نفًا "يدويًا"، بَلْ "ميكانيكيًا"، لأَنَّ الفتحةَ تعودُ لمكانِها بَعْدَ سقوطِ الدخيلِ".

يكملُ حديثَهُ حول الأنفاخ:

-"أغلبُ الأنفاخِ الفينيقيَّةِ مِنْ نفاخِ غطاءِ البئرِ، فأغلبُ الدفائنِ الفينيقيَّةِ محميَّةٌ بغطاءِ البئرِ، وهو مِن الفخاخِ المميتةِ، وبالنسبةِ إلى أنَّ أكثرَ الأنفاخِ الرومانيَّةِ فتكًا، هي: الصخرةُ الساقطةُ بحَيْثُ أنْ وطأتْ قَدَمَاكَ إحدى الدَّرَجَاتِ، وقعتْ عَلَيكَ صخرةٌ تَزِنُ أطنانًا!!، وهُنَاكَ عَالِمُ آثارٍ قُتِلَ بهذهِ الطريقةِ، وكذلك هُنَاكَ نَفُّ الكلسِ، وهو: سقوطُ مادةٍ كلسيةٍ هائلةٍ مِن سقفِ المغارةِ على الداخل إليها، مِمَّا يؤدِّي إلى العَمَى، أو الاختناقِ، أو الحرقِ.

وغالبيةُ الأنفاخِ اليهوديَّةِ تعتمدُ على الخنقِ والتسبُّبِ في العَمَى للدخيلِ، هذا مِنْ منطلقِ عِلْمِي ومثبتٍ، أمَّا مِنْ ناحيةِ السِّحْرِ، فهُنَاكَ إخوةٌ أدرى مِنِّي بهذا الأَمْرِ.

ومن أَهَمِّ الأنفاخِ أيضًا:

أنفاخُ النباتاتِ السَّامَةِ: بحَيْثُ يعمدُونَ إلى وضعِ نباتاتٍ سَامَّةٍ داخلَ مكانِ الدفنِ؛ بحَيْثُ خلالَ سنةٍ مِنْ وضعِ المدفونِ يصبحُ جَوَّ المكانِ الداخلي عابقًا بالسمومِ؛ بسببِ التفاعلاتِ الكيميائيَّةِ، وعدمِ اكتمالِ دورةِ "الكلوروفيل"؛ وبالتالي كيف تتخيَّلُ كَيْفَ سيكونُ الجَوُّ الداخلي بَعْدَ (١٠٠٠) أو (٢٠٠٠) سنةٍ؟!!

المتاهاتُ:أي عِدَّة أبوابٍ للدخولِ؛ مِمَّا يؤدِّي إلى الضياعِ؛ وبالتالي الموتُ المحتَّمُ.

خَفُّ بابِ البئرِ: يُسَمَّى بالميزان؛ بحَيْثُ إذا وقفتَ على غطاءِ بئرٍ فيه كنزٌ يقلبُ البابَ؛ وتقعَ في البئرِ؛ ويعودَ الغطاءُ لوضعِهِ الطَّبِيعِيّ؛ وكان الرومانُ يحفرونَ في حوائطِ المغارةِ فجواتٍ على شكلِ "القمع -البوق"، وباتجاهاتٍ متعاكسةٍ؛ بحَيْثُ إذا دخل الهواءُ- الرياحُ إلى المغارةِ مِنْ بابِها تصدرُ أصواتٌ متضاربةٌ ومختلفةٌ؛ بحَيْثُ يُسْمَعُ مِنْ على البابِ أو تصدرُ المغارةُ أصواتًا متناغمةً، ويتحوَّلُ النَّغَمُ إلى موسيقى جنائزيَّةٍ تعْلُو تَارَةً، وتنخفضُ تَارَةً أخرى، وهذا ما يحسبُهُ الناسُ مِن العَامَّةِ أصوات الجِنّ.

وبالنسبة للغازاتِ السَّامَّةِ الموجودةِ في الداخلِ؛فهي بفعلِ تحلُّلِ الجثثِ وتعفُّنِ المأكولاتِ والعطورِ الباليةِ، وخَاصَّةً أوَّلُ وثاني أكسيد الكربون؛ لأنَّ استنشاقَ هذه الغازاتِ يؤدِّي إلى الاختناقِ، والإغماءِ فالموت؛ عندَها تسرى إشاعاتٌ أنَّ الرصدَ خنقَهُ وقتلَهُ!!

فَخُّ الجارورِ: عبارةٌ عَنْ قضيبٍ مِن البرونزِ أو الرصاصِ، مربوطٌ مِن البابِ إلى جارورٍ في سقفِ المغارةِ؛ بحَيْثُ إذا دخلَ أحدٌ إلى البابِ سقطَ القضيبُ البرونْزِيّ؛ وبالتالي سقطَ الجارورُ الَّذي يحتوي على كلسٍ حارقٍ يسقطُ أمامَ الداخلِ؛ ويتناثرُ الغبارُ؛ ويحرقُ عيونَ الداخلِ؛ فيُصابُ بالعَمَى!!

فَخُّ الحشراتِ والأَفَاعِي: عِنْدَ الإغريقِ كانُوا يَضَعُونَ أفعى أثناءِ الدفنِ في المَدْفَنِ، وخَاصَّةً إنْ كانتِ المتوفَّاةُ امرأةً؛ لاعتقادِهم أنَّ الأَفْعَى هي الحارسُ الأمينُ لمَدْفَنِ الملكةِ أو الأميرةِ؛ وهكذا تأكلُ الأفعى الترابَ؛ لتعيشَ؛ وتضعَ بيضَها؛ وتكبرُ الأفاعي؛ وتحاول الخروج، لَكِنْ دُونَ فائدةٍ؛ لأنَّ المَدْفَنَ محفورٌ في الصخرِ، ويأتي المنقِّبُ عَن الآثارِ، ويفتحُ البابَ؛ فيُصابُ بالذهولِ؛ لأنَّ الأفاعى الضخمةَ تحاول الهروبَ مِن البابِ؛ شوقًا للحياةِ فوق الأرض، وتصدرُ فحيحًا كبيرًا.

يفكّرُ الدكتور"إبراهيم" بصوتٍ عالٍ:

-"لماذا لمْ يهاجمِ الرصدُ العَالِمَ الأَثَرِيّ الإنجليزيَ "هوارد كارتر"، واللورد "كارنارفون" حينما اكتشفَا كنزَ "توت عنخ آمون"، و كذَلِكَ علماءَ الآثارِ الغَرْبِيينَ؟؟!!".

تمضي لحظاتٌ، ويظَلُّ الصمتُ يخيّمُ على الجميعِ، ولا أحدٌ يحاول أنْ يشيرَ بيَدِهِ؛ ليجيبَ عن السؤالِ في هدوءٍ يسبقُ العاصفة:

-"في (٤) نوفمبر مِنْ عامِ (١٩٢٢)م اكتشف عَالِمُ الآثارِ الإنجليزِيّ الأصلِ، والخبيرُ في علومِ المصريَّاتِ "هوارد كارتر"، وبتمويلٍ مِن اللورد

"كارنارفون" قَبْرَ الفِرْعَونِ الذَّهَبِيّ، ورغمَ جميع الصُّعُوبَاتِ فقَدْ أَصَرَّ "كارتر" على المُضِّي في تنقيبِه؛ لاكتشافِ مقبرةِ "توت عنخ آمون"، بَعْدَ أنْ مَحَا اسمَهُ الفراعنةُ الَّذِيْنَ خلفُوه، ولولا جهودُ "كارتر" الحثيثةُ؛ لكانتْ قَصَّتُهُ وجميعُ كنوزِهِ فُقدتْ إلى الأبدِ في رمالِ مِصْرَ".

في انفعالٍ شديدٍ:

-"لَكِنَّ الغريبَ هنا ما حَدَثَ بَعْدَ الاكتشافِ، حَيْثُ أدَّتِ الوفياتُ الَّتِي حدثتْ في السنواتِ الَّتِي تَلَتْ اكتشافَ المقبرةِ إلى خلقِ فكرةِ لعنةِ الفراعنة!!، في البدايةِ تُوفِّي اللورد "كارنارفون" مُمَوِّلُ البعثةِ بَعْدَ (٥) أشهرٍ فَقَطْ مِنْ فتحِ المقبرةِ؛ لتعرُّضِهِ لمرضٍ شديدٍ؛ حَيْثُ وصلتْ درجةُ حرارتِه لـ(٤٠) درجةً مئويَّةً، وكان يرتجفُ مِنْ تأثيرِ الحُمَّى الَّتِي أُصيبَ بها؛ وأدَّتْ فيما بَعْدُ لوفاةِ اللورد، في (٥)أبريل ١٩٢٣ م، وتوالتِ الوفياتُ لكُلِّ أفرادِ الفريقِ، حَتَّى ماتَ مُكْتَشِفُ المقبرةِ "هوارد كارتر"، في سنة ١٩٣٩م؟!!".

يشير الدكتور"إبراهيم" بيَدَيهِ إلى "فارس"؛فيَرُدُّ "فارس":

-"نَعَمْ يا دكتور"

الدكتور"إبراهيم" يضحكُ:

-"نَعَمْ، أَنْتَ لَمْ أنساكَ، اسمُكَ فارس، أليسَ كَذَلِكَ؟"

"فارس":

-"تمام"

الدكتور "حمدي" يسألُهُ:

-"ما أخبارُ مشروعِكم؟"

"فارس" تلعثمَ:

-"الأمورُ تسيرُ على ما يُرام"

يطلب منه الدكتور "إبراهيم" توضيحًا:

-"هل توصلتَ إلى اكتشافِ سردابٍ، أو سمعتُ خبرًا عن دخولِ أحدِ الأشخاصِ سردابًا مِن السراديبِ وخروجِهِ، أو حدوث جريمةِ قتلٍ؛ بسبب التنقيبِ في أحدِ السراديبِ"

"فارس" في حيرةٍ:

-"تمام يا دكتور؛ اجلسْ يا "فارس"، هل هناك أسئلة؟"

لم يرد أحد في المدرج؛ فشكرهم الدكتور؛وانصرفَ.

لم يتحدَّثْ فريقُ البحثِ طولَ المحاضرةِ؛ فما سمعُوا زادَ مِنْ توتُّرِهم جميعًا، وبَعْدَ انتهاءِ المحاضراتِ يبدأ "فارس" بالاعتذارِ للجميع عَنْ عدمِ المجيء في اليوم الَّذِي اتفقوا فيه؛ بسببِ شعورِهِ بالبَرْدِ والزُّكَامِ.

"حازم" يقاطعُهُ:

-"حمدًا للهِ على سلامتِكَ، "أحمد" كان مريضًا مثلي"

يُردُّ "فارس":

-"أحمد مريض جدًّا مُنْذُ ثلاثة أيامٍ"

ينظر "أحمد" في حِدَّةٍ إلى "حازم"؛ ويكمل الحديث:

-"معذرة يا فارس، أنا أستطيعُ الكلامَ عَنْ نَفْسِي جيدًا؛ فقد تعرَّضْتَ لإغماءٍ عندما نزلتُ شارع "النَّبِيّ دانيال"

"خالد" يتدخلُ:

-"خيرًا يا أحمد"

ويوجّهُ نظرَهُ نحو "حازم":

-"كنْ جادًا في مشروعِ البحثِ، والتزمْ بمواعيدكِ"

"أحمد" يقطّبُ جبينَهُ:

-"واللهِ نحن جادين، فقد كُلِّفْنا بالمشروعِ مِن الدكتور"

يقاطعُهُ "خالد":

-"ألم نتأخرْ في البحثِ؟"

يخفض "أحمد" و"فارس" رأسَهما.

"حازم" مخاطبًا لهم:

-"هُنَاكَ ربطٌ بين حضارةِ الإغريقِ وسلوكياتِ الأهالي بالمناطقِ القديمةِ، مِثْلُ: تصوُّر الأهالي بأنَّ مسجدَ "عَبْد الرَّزاقِ الوَفَائِي" في الإسكندرية يُهَادِي الأطفالَ، وفي نَفْسِ الشارعِ يُقَالُ أنَّ الأرضَ تبتلعُ الفتياتِ، لتقديمِهُنَّ قرابينَ لآلهةِ الإغريقِ، حَتَّى وجودِ مكتباتِ بيعِ الكُتُبِ بهذا الشارعِ لَهُ علاقةٌ بالتأثيرِ الرُّوحِي لمكتبةِ الإسكندريَّةِ القديمةِ، وروحُ الإسكندرِ هي الَّتِي جعلتْهم يأتُونَ إلى هُنَا، بجوارِ جثمانِه، لعشقِه للثقافةِ، وأؤكّدُ لَكُم أنَّ هُنَاكَ أسرارًا كثيرةً بذَلِكَ المكانِ الذي يُدْعَى"النَّبِيّ دانيال"، وعلينا فتحُ حوارٍ مَعَ كُلِّ البَائِعِينَ بالشارعِ، وأهالي المنطقة، ومشايخ المسجد، وخَاصَّةً أَنَّنِي تحدَّثْتُ مع أحدِ شيوخِ المسجدِ، وحَكَى لي الكثيرَ، ولولا أنَّ المسجدَ أُغْلِقَ للترميمِ، لكان أدخلَني للسردابِ الذي يظهرُ مِنْ

خارجِ المسجد، ولَكِنْ مِنْ مكانٍ سِرِّيّ بالمسجدِ، وكان يعتقدُ الشيخُ بأنَّ مِنْ هُنَا تَمُرُّ البناتُ المخطوفاتُ، لأنَّ الدماءَ تلطِّخُ أرضية السرداب في طريقِها للعَالَمِ السُّفْلِيّ، وهذا ما أَكَّدَ عليه الدكتور "إبراهيم".

ظهرَ على الثلاثةِ الرعبُ لِمَا يقولُ "حازم".

"أحمد" وقد تصبَّبَ العرقُ منه:

-"أنا لا أستطيعُ دخولَ المسجدِ أو شارعَ "النَّبِيَ دانيال" مَرَّةً أخرى؟!"

ينظرُ "حازم" نحوه:

-"أنا لا أفهمُ شيئًا مِمَّا تقولُ!!"

يكمل "أحمد":

-"لا أعلم ماذا أقولُ، ولَكِنْ كان لي فتاةٌ أحبُّها، واختفتْ بذَلِكَ الشارعِ؟!"

يظهر الذهول والخوف على "خالد"، مِمَّا يسمعُ، يرُدُّ "حازم"

-"وهذا يحفِّزُكَ أكثرَ، لتبحثَ عَمَّا جرى لها؟!"

"أحمد":

-"ولَكِنّي أظنُ أنَّ هُنَاكَ ما هُوَ أخطرُ، لقد ذهبتُ لشارعِ "النَّبِيّ دانيال" في اليومِ الذي اتفقنا عليه مسبقًا، ودخلتُ مسجدَ "عَبْد الرَّازَقِ الوَفَائِي"، لأجدَ أَمَامِي رَجُلِينِ مَقْتُولِينِ بالمسجدِ، وأُغْشِي عَلِيَّ، وعندما عدتُ للوعي وجدتُ نَفْسِي بالبيتِ، تذكَّرْتُ بصعوبةٍ ما مَرَرْتُ بِهِ، والأغربُ أنَّ والدَتِي أبلغتْنِي بأَنَّنِي فقدتُ الوَعْي في منطقةِ "محرم بك"، وأصبحتُ في حيرةٍ مِنْ أَمْرِي؟!"

"حازم"في استنكارٍ:

-"ولَكِنَّ المسجدَ في ذَلِكَ اليومَ كان مغلقًا للترميمِ، فكيفَ كنتَ هُنَاكَ؟!"

"حازم" يحملّقُ في وجه "أحمد":

-"إذًا ما رأيكَ أنْ نذهبَ، للتأكُّدِ أَهُنَاكَ ترميمٌ بالمسجدِ أَمْ لا؟؟"

يصمت الجميعُ.

"أحمد"يزفرُ في غضبٍ:

-"هل لا تُصَدِّقني؟"

"حازم":

-"أحمد أنا أصدّقُكَ، ولذَلِكَ يبدُو لي أنَّ الأمرَ مثيرٌ، فلماذَا لا نذهبُ جميعًا، ونستفيدُ بذَلكَ في إنهاء مشروعِ البحثِ"

يبتلعُ "فارس" ريقَهُ، تتلعثمُ الكلماتُ بين شَفَتيهِ:

-"حاااازم رأيهُ صحيح!!"

"خالد" في ضيقٍ:

-"لقد ندمتُ على مشاركتِكم في مشروعِ البحثِ، لنذهبَ ونُنْهِي الأمرَ يا أصدقاء".

يضطرُ "أحمد" لموافقتِهم على الذهابِ للمسجدِ، وخَاصَّةً بَعْدَ قالَ له "حازم":

-"سنذهبُ سَوِيًا، فَلَا دَاعٍ للقلقِ يا صديقي"

توجَّهُوا إلى المسجدِ، وقد تحقَّقَ مُبْتَغَى "حازم"

*****

(١٤)

كان الوسيمُ يربطُ "الكرافتة" بطريقة تميِّزُهُ عَنْ أيّ شخصٍ؛ فهُوَ يميلُ دائمًا للتَّبَاهِي في زِيّهِ، أهَمُّ ما كان يميِّزُهُ عَنْ بُعْدٍ : العطْرُ الفَرِنْسِيّ الرائعُ. توجَّهَ إلى القنصليةِ في الصباحِ؛ حَيْثُ يعملُ مديرًا للقنصليةِ مُنْذُ أكثر مِنْ أربع سنوات.

وهو مُحِبٌّ للآثار بوجهٍ عَامّ، والآثارِ المصريَّةِ اليونانيَّةِ، والإغريقيَّةِ بشكلٍ خَاصّ؛ ولذَلِكَ كان مهتمًّا بالإسكندرِ الأكبرِ، وغموضِ موقع دَفْنِهِ، وارتباطِهِ بمدينةِ الإسكندريَّةِ الَّتِي بَنَاهَا وسَمَّاهَا باسْمِه.

بحثَ كثيرًا، وكُلُّ الاستنتاجاتأكَّدَتْ أنَّهُ مدفونٌ بالإسكندريَّةِ؛ لذَلِكَ سَعَى بكُلِّ جهدٍ، حَتَّى تَوَصَّلَ مع الباحثِ الفَرِنْسِيّ "عدن"، والحاصلُ على لقبِ "سير" مِن إنجلترا؛ حَيْثُ عَمِلَ كمبعوثٍ لـ"إنجلترا" لسِنِينَ طويلةٍ، واستعانَوا به؛ ليحصلَ على تابوتِ الإسكندرِ الأكبرِ، ورغمَ قُرْبِهم مِن الهدفِ لَمْ يصلُوا إليه!!؛ لذَلِكَ كان "سير عدن" بانتظارِ الرجلِ الوسيمِ قنصلُ فرنسا بغرفةِ استقبالٍ بالقنصليةِ؛ ليرحِّبَ به القنصل:

-"تفضَّلْ سير عدن بمكتبي"

-"شكرًا يا جاك على حُسْنِ استقبالِكِ لي"

يجلسُ مسيو "جاك" بمكتبِهِ، ويطلبُ مِن "السير" التفضُّلِ بالجلوسِ؛ ليسألَهُ:

-"ما أَتَى بِكَ هُنَا؟!"

يجيبُهُ "جاك":

-"الأمرُ صعبٌ؛ ونحتاجُ لتدخُّلِكَ، وخَاصَّةً أنَّ التابوتَ مِنْ زجاجٍ لا يمكنُ نقلُهُ إلا بعنايةٍ؛ لذَلِكَ يجبُ إحداثُ فجوةٍ أو ثقبٍ مِنْ سطح الشارع"

"عدن" في ضيقٍ:

-"كُلُّ محاولاتِ إخراجِ التابوتِ باءتْ بالفشلِ، وظهورُ الثعابينِ سبَّبَ موتَ بعضِ أفرادِ الطاقمِ، إلى جانبِ أنَّ التابوتَ محاطٌ بفَخِّ البئرِ القَلَّابِ؛ حَيْثُ الفتحةُ تعودُ لمكانِها بَعْدَ سقوطِ مَنْ يقفُ عليه أمامَ التابوتِ مباشرةً، وهذا أصعبُ ما في الأمر؟!

"جاك":

-"لقد أغلقْنا المسجدَ؛ وأصبحَ دخول أفراد الطاقم وخروجه أمرًا سهلًا، وتعملُون بأيِّ وقتٍ!!"

يُرُدُّ "عدن":

-"أنا لَمْ أطلبْ إغلاق المسجد مِن الأساسِ، ولولا حماقةُ ذلك المُقَدِّمِ بَعْدَ قتلِهِ للعَامِلِينِ بالمسجدِ؛ لَمَا اُضطررنا لاستخدامِ الخطة (ب)"

"جاك" يفركُ أصابعَهُ:

-"أَنْتَ تعلمُ أَنَّنا يجبُ أنْ نُنهِي العمليةَ بسرعةٍ خلالَ يَوْمِينِ؛ لأنَّ ذَلِكَ الطالبَ سيستعيدُ وَعْيَهُ"

ثُمَّ أَخَذَ نَفْسًا مِن السيجارِ الفاخرِ، ونفخَ الدخانَ بالهواءِ، ليكملَ:
-"الحقنةُ الَّتِي أعطيتْها له مفعولُها يَقِلُّ تدريجيًا خلالَ أسبوعٍ، وسيدركُ أنَّ ما رآهُ حقيقةً"

السير "عدن" في غضبٍ:
-"كان مِن المفروضِ قتلُ ذَلِكَ الشابِ بدلًا مِن استخدام حقنة propranolol، والَّذِي يُسبِّبُ فقدانَ الذاكرةِ، بحسبِ دراسةٍ نُشرتْ في صحيفةِ أبحاثِ عِلْمِ النَّفْسِ Journal of Psychiatric Research عَنْ أبحاثِ عُلَمَاءِ النَّفْسِ في جامعةِ "ماك جيل" في "مونتريال" وجامعة "هارفارد" في "بوسطن" في استخدامِ دواءٍ، لتخفيفِ ذكرياتٍ مؤلمةٍ لضَحَايَا الحوادثِ والأزماتِ، propranolol يُسْتَخْدَمُ عادةً لمَرْضَى القلبِ، ويمكنُهُ حذفَ ذكرياتٍ محدَّدَةً دُونَ التأثيرِ على الذاكرةِ، مِنْ خلالِ حقنٍ مُخَدِّرٍ يحفِّزُ على فقدانِ الذاكرةِ في الوقتِ المناسبِ، أيّ أنَّ الشخصَ يُحْقَنُ بهذا الدواءِ المذكورِ في اللحظةِ الَّتِي يستحضرُ فيها تِلْكَ الذكرياتِ المفجعةَ، ويفكّرُ فيها. ووَجَدَ علماءُ الأعصابِ أنَّهم قَادِرُونَ على تعطيلِ عمليةِ تخزينِ ذكرياتٍ محدَّدَةٍ أو حَتَّى جعلِها تختفي مِنْ عقولِ الأشخاصِ المُعَيَّنِينَ.

"جاك" يكملُ حديثَهُ:
-"لَكِنْ لو عَلِمَ أحدُ بدخولِهِ المسجدَ، وأبلغَ الشرطةَ باختفائِهِ، حينَها تأتي الشرطةُ تبحثُ وتتحرَّى عَن الأمرِ، ومِن الواردِ اكتشفُوا أَمْرَنا أَمْ أنَّهُ يذهبُ للمستشفى مُغْمَى عليه، ويجرونِ له الفحوصاتِ، فيجدُوهُ سليمًا، ومَعَ

الفحصِ المَبْدَئِي للمستشفى يؤَكِّدُ أنَّهُ يُعَانِي مِنْ صدمةٍ عصبيَّةٍ، ونَحْنُ نعلمُ أنَّهُ سيستعيدُ وَعْيَهُ بَعْدَ (٤٨)ساعةً، وسيفيقُ تمامًا مِنْ أثرِ الحقنةِ بَعْدَ (٩٦) ساعةً على الأقلِ؛ لذَلِكَ نَحْنُ وَاثِقُونَ مِن انتهاءِ العمليةِ قَبْلَ إدراكِهِ لِمَا حَدَثَ؛ لَكِنَّكَ تضيّعُ الوقتَ دُونَ داعٍ؛ وتُلْقِي باللومِ علينا"

السير "عدن" في تودُّد:

-"جاك أنا لا ألومُكَ؛ فالمطلوبُ واضحٌ؛ فتحُ ثقبٍ مِنْ فوقِ سطحِ الأرضِ؛ بحجةِ انفجارِ ماسورةِ مياهٍ للشُّرْبِ، ويتمُّ إغلاقُ الشارعِ لحينِ انتهاءِ العمليةِ؛ حَتَّى نتمكَّنَ مِنْ رفعِ التابوتِ دُونَ تلفٍ، وأظُنُّ أنَّكَ تستطيعُ تدبيرَ الأمرِ مع المسؤُولِينَ، والأفضلُ أنْ تأتي المرافقُ البلديَّةُ، وتمنعُ الباعةَ الجَائِلِينَ في الشارعِ مِن الوقوفِ، حَتَّى أكشاكِ الكُتُبِ تأمرُهم بالغلقِ بأي حجةٍ، مَثَلًا :المحافظُ سَيَمُرُّ مِنْ هُنَا صباحًا، وهذا الأمرُ لَيْسَ غريبًا أو مريبًا، بَلْ مِنْ خلالِ معرفتي بالثقافةِ الاجتماعيَّةِ المصريَّةِ يحدثُ كثيرًا".

"جاك" وقد لمعتْ عيناهُ:

-"لا مشكلة، السير "عدن" خلالَ ساعاتِ المرافقُ ترفعُ البضائعَ من الشارعِ، وتغلقُ أكشاكَ الكُتُبِ، والماسورةُ تنفجرُ الليلةَ، والشارعُ سيُغْلَقُ، ولَكِنْ قَبْلَ طلوعِ الشمسِ يجبُ أنْ يكونَ التابوتُ في حِيَازَتِي"

*****

روحٌ تلتفُ حَوْلِي مُنْذُ يَوْمِينِ أشعرُ بأنَّها تهمسُ بأُذُنِي، وتحاولُ أَنْ تأخذَني إلى مكانٍ ما لا أعرفه ..، ولَكِنَّها تطلبُ مِنِّي أنْ أعودَ إلى نَفْسِ المكانِ؛ هَلْ هي ترتاحُ هُنَاكَ أَمْ أنَّ سِحْرُ القمرِ يداعبُها؟!، هَلْ هي الروحُ المتلاصقةُ

بِي مُنْذُ موتِها تتركُني ثُمَّ الآنَ تطلبُ مِنّي الذهابَ إلى هُنَاكَ، لماذا أترى هُنَاكَ سِرًّا تريدُني أنْ أعرفَهُ أَمْ أنّها على قيدِ الحياةِ؟!، ونتواصلُ مَعِي بروحِها، حَتَّى الأمواتِ تطالبُ بحقوقِها، فلماذا إذًا نفرِّطُ نَحْنُ في حقوقِهم، ونَحْنُ أحياءٌ؟!، هل هذا هروبٌ مِن الواقعِ أم خَوْفٌ مِنْ مواجهةِ ما يطالبُونَ بِهِ، لَمْ يعدْ لَدِينا خيارٌ، سنكملُ طريقَنا ؛حَتَّى نكتشفَ الحقيقةَ، ما حَدَثَ صعبٌ، والقادمُ أصعبُ!!

"جميلة" مُنْذُ أيامٍ، وهي في حيرةٍ، وما قالتْهُ لها "كارما"، زادَ مِنْ أوجاعِهِ، فلَمْ تعدْ تستطيعُ النومَ إلَّا سَاعَتَينِ بالليلِ، بَعْدَ أنْ يقتلَها الإرهاقُ، وذلك الكَابُ أعادَ ذاكرةَ الحادثِ الغامضِ، ليفتحَ أمامَهم لغزُ اختفائِها، وكيف تَمَّ التضحيةُ بأختِهم، مِنْ أجلِ آلهةِ الأساطيرِ عِنْدَ الإغريقِ، وهل روحُها معلقةٌ، لحينِ أَخْذِها بثأرِها أم أنَّهُ تحيا بعَالَمٍ آخرَ بـ (مغارةِ دانيال)، ونتواصلُ معنا بروحِها؟!

"جميلة" تتصل على "خالد":

-"يجبُ إذًا اقتحامُ تِلْكَ المغارةِ، فإمَّا أنْ نحرِّرَها أو نموتَ هُنَاكَ، ولنسكنْ بالقُرْبِ مِنْهَا، وسآخذُ "كارما"، ونذهبُ سَوِيًا إلى ذَلِكَ، وندخلُ ذَلِكَ السردابِ"

"كارما" تزفرُ في ضيقٍ:

-"كُفِّي عَن الهمسِ بأُذُنِي، فلَمْ أعدْ أستطعْ التحمُّلَ، سأذهبُ إلى هُنَاكَ كما تَرْغَبِينَ، أَمَا زِلْتِ تَسْمَعِينَ "هبة" تهمسُ لَكِ!!"

تجيبُها "جميلة":

-"نَعَمْ، هي تقولُ: انزلي للشارعِ، اخرجِيني مِنْ هُنَا، هَيَّا يا "كارما" ارْتَدِرِ ملابسَكِ؛ لنعرفَ ماذا حَدَثَ لأختِنا، وسنخبرُ أُمَّنا أنَّكِ ذاهبةٌ لكورسِ اللغةِ الإنجليزيَّةِ، وأنا سأذهبُ لصَدِيقَتِي "مريم"؛ لمراجعةِ بعضِ المحاضراتِ"

قامتْ "كارما"؛ لترتدي ملابسَها، واصطحبتْ كُتُبَها، وما يلزمُها، ثُمَّ التفتتْ إلى "جميلة"؛ لتجدَها تبعثرُ في أدراجِ الدولابِ حَتَّى أخرجتْ مصباحًا صغيرًا؛ ووضعتْهُ في حقيبتِها ثُمَّ أخبرتْا والدتَهما بما اتَّفَقَتَا عليه، وتوجَّهْتَا للبابِ.

كانتْ كُلُّ لحظةٍ تَمُرُّ عليهما بصعوبةٍ شديدةٍ، دقاتُ قلبِهما تتسارعُ، وبينما هُمَا في الطريق نحو شارع "النَّبِيّ دانيال" فجأةً قامتْ "جميلة" بتغييرِ مسارِها؛ لتدخلَ لذَلِكَ الشارعِ الرَّئِيسِيّ الَّذِي يُسَمَّى شارع "المَلِك فؤاد"، الَّذِي يقطعُ شارع "النَّبِيّ دانيال".

"كارما" تسألُ أختَها:

-"لماذا دخلتِ هُنَا؟!"

لَكِنَّها لا تجيبُ؛ إنَّها تكملُ طريقَها بِلَا توقُّفٍ، وفي صمتٍ يجعلُ الأمرَ يزيدُ مِنْ توتُّرِ "كارما"، حَتَّى وصلتْ إلى سينما "أمير"؛ لتدخلَ شمالًا حَيْثُ شارع "صفية زغلول"، تستمرُّ في السير؛ لتسألَها "كارما" للمَرَّةِ الثانيةِ في عصبية:

-"إلى أَيْنَ تَذْهَبِينَ يا جميلة؟!"

تنظرُ لها "جميلة"، وعَيْنَاها زَاغِتَانِ، وكأنَّها قد سُلِبَ عقلُها منها:
-"أنا أسيرُ خلف هبة؛ فهي تمشي أمامي؛ و أقومُ باتِّبَاعِها!!"
الخوفُ يَدُبُّ في قلبِ "كارما"؛حَتَّى أنَّها بَدَتْ تَخْشَى "جميلة"!!،
وأصبحتْ في حيرةٍ، ما بين الكلام والصمت، لا تعرفُ أيّهما تختارُ؛ لَكِنَّها تسيرُ متبعةً "جميلة"، حَتَّى وصلُوا إلى نفقٍ قديمٍ أَوَّل شارع "صفية زغلول"، كان بالمَاضِي نفقٌ مشاةٍ، وبها مول للتَّسَوُّقِ، ولَكِنَّهُ مغلقٌ، ولا يعرفُ أحدُ السبَّبَ الحَقِيقِي وراءَ أغلقَهُ مُنْذُ زمنٍ، وهو الَّذِي يُعَدُّ أَوَّلُ نفقٍ في الإسكندريَّةِ؛ حَيْثُ كان يستخدمُهُ المشاةُ لعبورِ شارعِ ميدانِ "محطة الرمل" المكوَّنُ مِنْ أربعِ اتجاهاتٍ بأمانٍ ويسرٍ، حَتَّى أنَّهُ كان يوجدُ داخلَ النفقِ محلاتٌ تجاريَّةٌ للأطعمةِ، والمشروباتِ، والملابسِ في شكلٍ يشبهُ المولَ التُّجَارِيّ المتعارَفَ عليه الآنَ؛ قَبْلَ أنْ يصبحَ هَذَا النفقُ مقرًا لأكوامِ القمامةِ والقاذوراتِ، ويستخدمُهُ الأطفالُ الَّذِيْنَ يسكنُونَ في الشارعِ، وكذَلِكَ المتسوّلُونَ، والمُدْمِنُونَ، والخَارِجُونَ عَن القانونِ، ولَكِنْ تَمَّ السيطرةُ عليه، وهُوَ الآنَ مغلقٌ بأبوابٍ مِنْ حديدٍ، ومهجورٌ مُنْذُ سِنِينَ، تنزلُ "جميلة"درجاتِ سُلَّمِ النفقِ في سكونٍ تامٍ، لَكِنَّ "كارما" تقفُ ولا تنزل معها، حَتَّى تصلَ لذَلِكَ البابِ الحَدِيدِيّ الَّذِي عليه سلاسلُ مِنْ حديدٍ وعليه قِفْلٌ كبيرٌ؛ فتنظرُ "جميلة" لها، وتشيرُ لها بالنزولِ؛ فتستجيبُ، وهي ترتعدُ خوفًا، وبمُجَرَّدِ أنْ نزلتْ؛ فُتِحَ البابُ!!، تدفعُ "جميلة" البابَ بيَدِيها، وتدخلُ في النفقِ ثُمَّ البابِ الَّذِي يَلِيهِ، وكأنَّها تعرفُ إلى أينَ تذهبُ تسيرُ عِدَّةَ خطواتٍ داخل النفقِ ثُمَّ تقفُ بجوارِ إحدى المحلاتِ المغلَّقَةِ؛

فإذا بشيءٍ يقلبُهُ إلى أسفلِ ذَلِكَ المحلِ، مِثْلُ:نُفَّ البئرِ القَلَّابِ، لتجدَ نَفْسَها أمامَ ممرٍ طويلٍ مظلمٍ، تخرجُ المصباحَ مِنْ حقيبتِها، وتنيرُ به الممرُ، حَتَّى ينطفيءَ بسببِ البطاريةِ، تمسكُ "كارما" بيَدِ أختِها بشدةٍ، تحاولُ تشغيلَهُ مَرَّةً أخرى، ولَكْنْ سرعانَ ما يظهرُ نورٌ أبيضُ يضيءُ الممرَ، حَتَّى تصلَ للبيوتِ القديمةِ المبنيةِ مِنْ حجرةٍ صخريَّةٍ، تسيرُ بينها، هُنَا تتكلَّمُ "كارما"، وهي ترتجفُ:

-"أينَ نَحْنُ؟!!"

تنظرُ لها "جميلة" في هدوءٍ عجيبٍ:

-"لا أعلمُ، ولَكِنَّ "هبة" طمأنتْني، فهِيَ أَمَامِي مُنْذُ البدايةِ، وحَتَّى الآنَ!!"

صَمَتَتَا مَرَّةً أخرى، تكملانِ طريقَهما حَتَّى وَصَلَتَا إلى ما يشبهُ الكهفَ أو المغارةَ ثُمَّ تقفانِ أمامَهُ في صمتٍ، وتخرجُ "كارما" مِنْ حقيبتِها بخورًا تنثرُ جزءً مِنْهُ على الأرضِ، وتضعُ البَاقِي بين يَدِيهَا، وهي تنظرُ له، وكأنَّها أَوَّلُ مَرَّةٍ تَرَاها تنفخُ فِيهِ، فإذا يتطيَّرُ مِنْهُ دخانٌ رائحتُهُ مِسْكٌ ثُمَّ تجلسُ على حجرٍ بجانبِ بابِ المغارةِ.

تستشعر "كارما" ذَلِكَ الضوءَ الَّذِي ينيرُ المكانَ، كان القمرُ يقفُ أمامَهم، تبتسمُ أمامَهُ ثُمَّ تنظرُ لأختِها "جميلة"، لتقولَ:

-"أنا أيضًا أرى أَمَامِي "هبة"!!

تردُّ "كارما"في غضبٍ:

-"ماذا ننتظرُ هُنَا؟!، لتأْتِي مَعَنَا، ونذهبَ!!"

"جميلة"في ذعرٍ:

-"لا يا كارما، ما نَرَاها لَيْسَتْ "هبه"؛ بَلْ روحَها تَدُلُّنا على الطريقِ؛ وهي طلبتْ مِنِّي الانتظارَ هُنَا؛ وستخبرُنِي في الوقتِ المناسبِ بما نفعلُهُ".

*****

انطلقُوا في اتجاهِ المسجدِ؛ ليجدُوهُ تَحْتَ الترميمِ، كما قال "حازم"؛ ليسألَهم:

-"ما رأيكُمْ؟"

ينفعلُ "أحمد":

-"لا أعلمُ؛ ولَكِنْ أنا متأكِّدٌ مِنْ أنَّنِي دخلتُ المسجدَ، وبه جُثَّتَانِ!!"

ويتابع "أحمد":

-"والرَّجُلُ الكبيرُ ذُو اللحيةِ كانَ يمسكُ بيَدِهِ ورقةً لونُها أحمرُ، مكتوبٌ عليها باللغةِ العِبْرِيَّةِ أو لغةٍ أخرى لم أتعرَّفْ عليها"

"فارس" في تعجُّبٍ:

-"الورقةُ لونُها أحمرُ؟!"

"أحمد" وقد ازداد حماسًا:

-"أعلمُ؛ ولَكِنَّ تصوَّرْتُ في البدايةِ أنَّها ملطَّخَةٌ بالدماءِ؛ ولَكِنْ حينَ أمسكتُ بِهِ لَمْ أستشعرْ ذَلِكَ؛ فقدتُ الوعي؟!!"

تأتي امرأةٌ عجوزٌ تحاولُ دخولَ المسجدِ؛ تجدُ البابَ مغلقًا، يقولُ لها أحدُ الباعةِ:

-"مغلقٌ مِن الداخلِ؛ لترميمِهِ"

المرأة في قلقٍ:

-"يا بُنَّي أنا زوجةُ الحاجِ "رضوان" الَّذِي يعملُ في المسجدِ،هل تعرفُهُ؟"

يجيبُها البائعُ:

-"نَعَمْ، أعرِفُهُ يا حَاجَّة، لكن لا يوجدُ أحدٌ داخلَ المسجدِ إلَّا عمالُ الصيانةِ، اتَّصَلِي على هاتفِهِ"

المرأةُ ودموعُها تنسابُ كالشلال:

-"هاتفُهُ مغلقٌ مُنْذُ عدةِ أيَّامٍ، حَتَّى الحوالةِ البريديَّةِ الَّتِي يرسلُها كُلَّ شهرٍ لَمْ تصلْنِي، ولَمْ يأتِ إلى القريةِ، هَلْ تَمَّ نقلُهُ لمسجدٍ آخرَ؟!"

ينصتُ فريقُ البحثِ في ترقُّبٍ.

البائعُ يَرِقُّ لحالِ العجوزِ:

-"سأحاولُ الدخولَ للمسجدِ، وأُنَادِي عليه، لَعَّلَنا نتعرَّفُ على مكانِهِ الجديدِ؟!"

المرأةُ العجوزُ تدعو للبائعِ:

-"لا حرمَكَ اللهُ مِنْ أهلِكَ"

يمسكُ الرَّجُلُ بالسورِ، ويحاولُ القفزَ، وينجحُ فعلًا ثُمَّ يصعدُ درجاتِ السُّلَّمِ، ويطرقُ البابَ الخَشَبِيّ، وبَعْدَ عِدَّةِ مَرّاتٍ لا يجدُ جَدْوَى مِنْ طرقِ البابِ، يحاولُ دفعَ البابِ بيديه، فيجدُهُ مغلقًا، يعودُ مَرَّةً أخرى مِنْ حَيْثُ أَتَى، ليخبرَ بأنَّ البابَ الخَشَبِيّ هُوَ الآخرُ مغلقٌ، رغمَ أَنَّنِي شاهدتُهم مُنْذُ الصباحِ في المسجدِ.

المرأةُ العجوزُ تغالبُ دموعًا ساخنةً:

-"ماذا أفعلُ الآنَ؟!"

البائعُ في تودُّدٍ:

-"أعْطِني رقمَ هاتفِكِ، وعندما أرى أحدًا مِنْ عُمَّالِ المسجدِ؛سأخبرُكِ بما وصلتُ إليه"

المرأةُ العجوزُ تنظرُ نحو الأرضِ:

-"خُذْ مِنْ هاتفِي الرقمَ المسجَّلَ بأُمِّ أشرف"

يأخذُ منها الهاتف؛ ويسجِّلُ رقمَها معَهُ.

"أحمد" يتدخلُ محاولًا أَخْذَ رقمِ هاتفِ المرأةِ العجوزِ:

-"أنا أُصَلِّي مع عَمِّ "رضوان" في المسجدِ، وأتَّصِلُ به مِثْلُكِ؛ وهاتفُهُ لا يَرُدُّ؛ وأريدُ الاطمئنانَ عليه، وإذا اتّصَلَ بِكِ؛ أتمَنَّى أنْ تخبِريني"

تشكرُهُ، وتكملُ حديثَها:

-"يا بُنَيِّ، جارتي الصغيرةُ هي مَنْ تتصِّلُ بعَمِّكَ رضوان"

"أحمد" يسألُها:

-"ولماذا لَمْ يأتِ مَعَكِ أشرف؟!"

تَرُدُّ عَلَيهِ في وجومٍ يخيِّمُ على وجهِها:

-"يعملُ في الكويتِ مُنْذُ عِدَّةِ سنواتٍ"

"أحمد" يُعْطِيها هاتفَها:

-"سأتَّصِلُ بِكِ لاحقًا؛ لأطمئنَ على عَمِّ رضوان".

تمضي، وهي لا تعرفُ ماذا تفعلُ؟!

كُلُّ ما عليها هو: الانتظارُ، حَتَّى يتصلَ بها البائعُ؛ ليطمئنَها.

ينظرُ "أحمد" لأصدقائِه، ويقولُ:

-"هُنَاكَ جريمةُ قَتلٍ؟!!"

"فارس" يتكلَّمُ:

-"لَيْسَ بالضرورةِ يا أحمد، فالمسجدُ مغلقٌ للترميمِ، ويمكنُ أنْ يكونَ قَدْ تَمَّ نقلُ الرَّجُلِ العجوزِ إلى مسجدٍ آخَرَ"

"حازم" في منطقيةٍ يُحْسَدُ عليها:

-"لا يا فارس، كيفَ يَتِمُّ نقلُ الرَّجُلِ، ولَمْ يبلِّغْ زوجتَهُ؟!"

"فارس" في حيرةٍ:

-"ماذا سنفعلُ الآنَ؟!"

"حازم" في حسمٍ:

-"ندخلُ السردابَ، ونصوِّرَ المكانَ مِن الداخلِ، ونخرجُ"

"خالد" يتساءلُ:

-"وكيفَ ندخلُ يا حازم؟!"

"حازم":

-"سنفعلُ مِثْلَ البائعِ الشابِ، والسردابُ خلفَ العمودِ، والمنطقةُ مغطاةٌ بالخَشَبِ، والظلام يَلِفُّ المكانَ"

"فارس" في تردُّدٍ:

-"لا أوافقُ"

"حازم" في ضيقٍ:

-"وحوار المُدَّرَج؟!"؛ أُذَكِّرُكَ يا فارس، نَحْنُ في مشروعِ بحثٍ واحدٍ، وحَتَّى الآنَ لَمْ يبذلْ أَحدٌ مجهودًا غيري، ما رأيكم ماذا نفعلُ؟"

"أحمد" وقد لمعتْ عيناهُ:

-"نأتي في الصباح الباكرِ؛ لَكِنْ يَتِمُّ تقديمُ رسالةٍ يضعُها طفلٌ متشرِّدٌ أمامَ مقرِ النجدةِ أو شرطةِ المرافقِ تفيد بوجودِ قنبلةٍ؛ حَتَّى يُخْلَى الشارعُ؛ وندخلُ المكانَ على أَنَّنا مِنْ فريقِ ترميمِ المسجدِ، و نَسِينَا المفتاحَ بالداخلِ".

يقاطعُهُ صوتُ سياراتِ الشرطةِ والمرافقِ، حَتَّى أَنَّ الباعةَ الجَائِلِينَ يحاولُونَ الفرارَ؛ ولَكِنَّ سياراتِ الشرطةِ تدخلُ مِن اتجاهِ شارعِ "المَلِك فؤاد"، ومِن الاتجاهِ الآخَرِ المعاكسِ لطريقِ سيرِ السياراتِ؛ وتمسكُ بالباعةِ؛ وتأخذُ بضائعَهم، وتخبرُ الأكشاكَ بالآتي:

-"يجبُ أَنْ تغلقُوا الآنَ؛ حَيْثُ يَمُرُّ غدًا عَضْوٌ دُبْلُومَاسِيّ رفيعُ المُسْتَوَى للقنصليةِ"

يبتسمُ "أحمد" لصديقِهِ "فارس"؛ ويقولُ:

-"كُلُّ شيءٍ يأتي في اتجاهِ دخولِ السردابِ!!"

"فارس" وقد افترسَهُ التفكيرُ:

-"لا أعلمُ ما نهايةُ ما تفعلُونَ؟!؛ ولَكِنْ أنا مَعَكُم حَتَّى النهايةِ أو لتَكُنْ بدايةً؟!!"

*****

لَمْ يفهمُوا ما يَرْمِي إليه "فارس"؟!، ولَكِنَّهم أخذُوا قرارًا، بأنْ يجلسُوا على "الكافيه"؛ لاحتساءِ القهوةِ حَتَّى أذانِ العِشَاءِ ثُمَّ يدخلُونَ المسجدَ حسبَ الخُطَّةِ المُتَّفَقِ عليها.

يقفزُ "أحمد" السُّورَ، ويلِيهِ "خالد" ثُمَّ "حازم"، "فارس" يتأمَّلُ السُّور ثُمَّ يقفزُ هُوَ الآخرُ، وبَعْدَ خطواتٍ بسيطةٍ وصلُوا للسردابِ، حَيْثُ خلعُوا عِدَّةَ ألواحٍ خشبيَّةٍ تُغَطِّي مدخلَ السردابِ، والَّتِي وضعتْهَا وزارةُ الآثارِ بَعْدِ المسلةِ الصغيرةِ المُكْتَشَفَةِ، والَّتِي يَرَاها أيُّ شخصٍ يَمُرُّ مِنْ أمامِ المسجدِ، هُمِ الآنَ على بُعْدِ خطوةٍ مِن السردابِ، هُنَاكَ ضوءٌ بسيطٌ يظهرُ مِنْ داخلِهِ، يتقدَّمُ "حازم" المجموعةَ.

-"ماذا تفعلُونَ هُنَا؟!"

صوتٌ قَوِيٌّ وغليظٌ أَتَاهُم مِن خلفِهم، يتراجعُ الجميعُ في خوفٍ، وينظرُ كُلًّا منهم للآخرِ!!!

هذا هُوَ الرَّجُلُ العجوزُ الَّذي دخلَ المسجدَ أكثرَ مِن مَرَّةٍ، وكادَ يقعُ داخلَ الحَمَّامِ، لولا تدخُّلُ الأهالي، فتَمَّ إنقاذُهُ، وقَد استاءَ مِنْهُ عَمّ "رضوان"، حَيْثُ لاحظَ عودتَهُ وبحثَهُ عن شيءٍ داخلَ الحَمَّامِ؟!

ينظرُ نحوه الجميعُ في ارتباكٍ، وفي لحظةٍ يدخلُ الرجلُ العجوزُ إليهم بَعْدَ أنْ وضعَ يدَهُ على البابِ الحَدِيدِيّ، ويدفعُهُ للأمَامِ؟!

يحاولُ "خالد" الكلامَ، كأَنَّهُ في جوفِ الموتِ:

-"مَنْ أَنْتَ، وكَيْفَ دخلتَ، والبابُ كان مُغْلَقًا بذَلِكَ القفلِ النُحَاسِيّ؟!"

لا يهتَمُّ العجوزُ بقولِ الفَتَى؛ بَلْ يقولُ:
-" أكملُوا المسيرةَ إلى الأمامِ"
ينظرُ إليه "أحمد"، وهو في شدةِ التَّعَجُّبِ والاندهاشِ:
-"كيفَ عرفتَ أنَّنا هُنَا؛ أَجِبْنِي مِنْ فضلِكَ؟!"
العجوزُ في غيرِ اكتراثٍ:
-"كُلُّ ما تريدُ معرفةَ إجابتِهِ بالأسفلِ هُنَا"
"أحمد" في دهشةٍ:
-"الأَوْلَى أنْ يجيبَ فارس!!"
ينفخُ "فارس" الهواءَ مِنْ فَمِهِ معلنًا غضبَهُ مِمَّا يسمعُ مِنْ كلامٍ:
-"لا تتكلَّمْ هكذا يا "أحمد"؛ فَأَبِي يعلمُ بالمشكلةِ مِنْ فترةٍ طويلةٍ؛ والأَوْلَى بِنَا أنْ ندخلَ السردابَ أو نخرجَ مِن هَذَا المكانِ!!"
يقاطعُهُ "حازم":
-"نَحْنُ في مدخلِ السردابِ؛ فَمِن الأفضلِ الدخولُ بدلًا مِن المناقشةِ؛ لَكِنْ لا تخطئُوا فَهْمِي:
-"لماذا أَتَى والدُكَ الآنَ؟!"
يجيبُ العجوزُ بدلًا مِنْ "فارس":
-"أنا خبيرٌ بذَلِكَ العَالَمِ الَّذِي ستقبلُونَ عليه"
يَرَى نظرةً تستحِقُّ الدراسةَ على وجهِ "حازم"؛ فيشيرُ إلى السردابِ؛ ويكملُ حديثَهُ:

-"أقصدُ السردابَ، والأفضلُ أنْ ندخلَهُ، فَلَا يجوزُ الوقوفُ هُنَا، حَتَّى لا يشاهدَنا أحدُ العَابِرِينَ، الحياةُ لا شيءَ بها يستحِقُّ العيشُ دُونَ مَنْ نُحِبُّ، لذَلِكَ خُذْ قرارَكَ الآنَ"

"أحمد" معتذرًا:

-"هَيَّا بنا لندخلَ"

يتقدَّمُ والدُ "فارس" أمامَهم، ويخطُو أُوْلَى خطواتِهِ بالداخلِ، وخلفَهُ فريقُ البحْثِ، ليَرُوا عَالَمًا آخَرَ لَمْ يخطرْ ببالِهم مِنْ قَبْلُ، مَمرٌّ مِثْلُ مَا حَكَى عَنْهُ الرَّجُلُ الضَّخْمُ يعلُو حَتَّى عِدَّةِ أمتارٍ، مَبْنِيٌّ مِن الأحجارِ، يقولُ والدُ "فارس":

-"شبِّكُوا بأيدِيكم حَتَّى إنْ وَقَعَ أحدُكم ببئرٍ مقلوبٍ، لا يقعُ به، وننقذُهُ بسرعةٍ"

يسيرُونَ خلفَهُ، يطلبُ مِنْ أوَّلِهم أنْ يضعَ يَدَهُ على الجدارِ، وكذَلِكَ آخرُهم، وهُوَ يسيرُ منفردًا في المقدمةِ، يشعرُ بأنَّ هُنَاكَ مَنْ يتمتمُ بكلماتٍ ثُمَّ ينظرُ خلفَهُ للجميعِ، وأكملَ السير"عدن" حَتَّى وصلُوا إلى نفقٍ كان قَدْ نَزَلَ بِهِ، ولَكِنَّهُ هُنَا طَلَبَ مِن الجميعِ أنْ يقومَ بعملِ دائرةٍ، ويكونُ هو بمنتصفِها، يندهشُونَ، يعترضُ "حازم" ينظرُ له "فارس" و"أحمد" ثُمَّ يتحدَّثُ والد "فارس" في أُذُنِ "حازم"، ويتعاونُ مَعَهم، يقفُ بمنتصفِ الدائرةِ، ويُلْقِي بصوتٍ منخفضٍ تعويذةً، فإذا هُمْ يجدُونَ أنفسَهم أسفلَ السردابِ.

أرضٌ كالحةٌ، وطريقٌ بِهِ بعضُ البيوتِ الصغيرةِ وبَقَايَا مِنْ جدارٍ متآكلٍ، أحجارٌ ملقاةٌ مِن الجرانيتِ يمينًا ويسارًا، وجبلٌ يبعدُ مئاتَ الأمتارِ عَنْهم،

يأتي ضوءٌ مِنْ اتجاهِ الجبلِ، مِن المفترضِ أنْ يسيرُوا في اتجاهِ الضوءِ، ولَكِنَّ هولَ الموقفِ جعلَ البعضُ يقعُ على الأرضِ؛ والآخرُونَ يتساءلُونَ:

-"ماذا يحدثُ؟!"

لَكِنَّ "حازم" يرتعدُ؛ فهُوَ الوحيدُ دُونَ "فارس" الَّذِي يفهمُ ما حَدَثَ؛ ليسألَ والدَ "فارس":

-"مَنْ أَنْتَ؟!"

يجيبُ "فارس":

-"وَالِدي يا حازم ....لم....."

يقاطعُهُ والدُهُ:

-"يا حازم، بماذا كانتْ تُتَمْتِمُ بالأعلى؟!"

يُصدَمُ "حازم"؛ ولا يعرفُ ماذا يقولُ؟!؛ ليكملَ والدُ "فارس":

-"لماذا أتيتَ إلى هُنَا؟!"

"حازم"يبدو مرتبكًا.

-"أحمد" في حيرةٍ من أمرِهِ:

-"أنا لا أفهمُ شيئًا؛ كيفَ انتقلْنَا إلى هُنَا؟!، وماذا تقصدُ بسؤالِ حازم؟!"

وَالِدُ "فارس" يطلقُ قنبلةً كلاميَّةً:

-"حازمُ يريدُ الوصولَ لمغارةِ دانيال!!"

"حازم" مدافعًا عَنْ نفسِهِ:

-"الكُلُّ يريدُ الوصولَ للمغارةِ؛ أَلَيْسَ "أحمد" يريدُ معرفةَ ماذا حَدَثَ لحبيبتِهِ؛ وهل هي بالمغارةِ أَمْ لا؟!"

يتوَجَّهُ"حازم" نحو"أحمد":

-"تريدُ أنْ تعرفَ أكثرَ، هي هل جاريةٌ أَمْ تَمَّ تقديمُها كقربانٍ للجِنِّ؟!"

"أحمد" يقتربُ بقوةٍ مِنْ "حازم"؛ ويقولُ:

-"ماذا تقولُ يا حازم، أَنْتَ مجنونٌ"

"فارس" يحاولُ تهدئةَ" أحمد":

-"اهدأْ يا أحمد، حازم لَمْ يقصدْ"

يقاطعُهُ "حازم" في إصرار:

-"بَلْ أقصدُ ما أقولُ، وأَنْتَ ووَالِدِكُ مَنْ تكونَا، وأبُوكَ مَا فعلَهُ يَدُلُّ على أَنَّهُ ساحرٌ كبيرٌ، فكيفَ أنزلْنَا لأسفلَ، لماذا أتيتَ إلى هُنَا؟!"

"خالد" يجلسُ على الأرضِ، وبدأَ يرتعشُ:

-"مَنْ أَنْتُمُ؟، وما جاءَ بِي هُنَا، أشعرُ بأَنَّنِي غَبِيٌّ، الكُلُّ يَسْعَى خلفَ مصالحِهِ"

"أحمد" في ثقة:

-"أنا لَمْ أخدعْ أحدًا، ولقد قلتُ لكم عَنْ أمرِ حَبِيبَتِي مِنْ قَبْلُ، لَكِنْ ما أسمعُهُ عجيبٌ"

وَالِدُ "فارس":

-"اهدأ يا أحمد، لقد كنتُ أَخْشَى عَلَيكُم مِنْ هذا المكانِ، وما كنتُ أَخْشَاهُ أكثرُ أَنْ يَتِمَّ استدراجُ أحدِكم إلى هُنَا مِنْ قِبَلِ مَنْ يسعَونَ للوصولِ إلى تِلْكَ المغارةِ، لتعلُّمِ فنونِ السِّحْرِ، وتقديمِ أحدِكم قربانًا على بابِ المغارةِ، بإلقاءِ تعويذةً عليه، حتَّى يسرقَ مِنْ أحجارِ المغارةِ حِيْنَ تَفْتَحُ أبوابُها"

ويوجّهُ نظرَهُ نَحْوَ "حازم":

-"مَا رَأْيُكَ يا حازم فيما أقولُ، أكنتَ تريدُ أنْ تفعلَ هَذَا بصاحِبِكَ "خالد"، وتقدّمَهُ قربانًا في أَوَّلِ مَرَّةٍ، حِيْنَ رافقتْهُ إلى المسجدِ، فوجدَهُ مغلقًا للترميمِ"

يغضبُ "حازم"، ويَرُدُّ عليه:

-"كاذبٌ، فلَمْ أنوِ فِعْلَ هَذَا بصَدِيقِي خالد"

يغضبُ "فارس"، وفي بغتةٍ يصفعُ "حازم" على وَجْهِهِ:

-"لا تَسُبَّ أَبِي، هل فهمتَ؟"

"أحمد" مهدئًا من بركان "فارس" الثائر:

-"ماذا حَدَثَ يا فارس، فلَمْ أَرَاكَ غاضبًا أبدًا؟!"

"فارس" وقد انتفختْ أوداجُهُ:

-"أَلَمْ تَرَى كيفَ يكلِّمُ أَبِي؟!"

وَالِدُ "فارس" في حزمٍ:

-"والآنَ هَيَّا بِنَا في طريقِ مصدرِ الضوءِ، فهُوَ وجهتُنا، هَيَّا يا "فارس"، وأَنْتَ يا "أحمد" سَاعِدَا "خالد" على الوقوفِ".

يتحرَّكُ "أحمد" و"فارس"، ليساعِدَا "خالد"، ويقومُ "خالد"، ويتمالكُ أعصابَهُ.

والد "فارس" في حماسٍ:

-"سِيرُوا للأمامِ، حَتَّى تصلُوا للضوءِ، وأنا خلفَكم، ومَعِي حازم"

"فارس" في عصبيةٍ:

-"أَبِي اتركْ "حازم" وشأنَهُ"

يضحكُ وَالِدهُ قائلًا:

-"أَلَمْ تلاحظْ يا "فارس" سكوتَ "حازم" مُنْذُ دقائقَ؟!، هُوَ الآنَ يُعتبرُ شبهُ نائمٍ مغناطيسيًا"

"أحمد" مندهشًا:

-"كيفَ هَذَا، هَلْ أَنْتَ ساحرٌ فِعْلًا؟!"

يَعُمُّ الصمتُ لحظاتٍ، ليجيبَ والدُ" فارس":

-"نَعَمْ يا أحمد، أنا ساحرٌ، ولَكِنْ أنا الآنَ هُنَا، لأنقذَكم مِمَّا كانَ يَنْوِي فِعْلَهُ حازم"

"خالد" وقد جحظتْ عَيْنَاهُ:

-"أكانَ يَنْوِي قَتْلِي؟!"

وَالِدُ "فارس":

-"كَانَ يَسْعَى، ليكونَ ساحرًا، حَتَّى لو قَدَّمكم جميعًا قرابينَ، مِنْ أجلِ حُلْمِ الثراءِ عَنْ طريقِ السِّحْرِ، حَيْثُ كانَ يريدُ استخدامَ السِّحْرِ في اكتشافِ مقابرَ أثريَّةٍ وفَكِّ رصدِها، ولَكِنْ حَظَّهُ السيءُ أوقعَهُ في ابْنِي "فارس"، لأنَّ الخادمَ الَّذِي مَعِي تتبَّعَ "حازم"، وراقبَهُ، وعَرِفَ ما هدفَهُ، وأبلغَني، لذَلكَ تركتُ الخادمَ يتابعُكم، لذَلكَ أتيتُ، لإنقاذِ الموقفِ، والآنَ نَمْضِي قدمًا إلى الأمامِ، فربَّمَا نجدُ ما يبحثُ عَنْهُ "أحمد".

ينظرُ" أحمد" في دهشةٍ:

-"كيفَ، وبَعْدَ مرورِ ثلاثِ سنواتٍ أنْ تظهرَ لنا أَوْ حَتَّى تعودَ؟!"

وَالِدُ "فارس" في ثقةٍ:

-"عندما تصلُ لبابِ المغارةِ، سوفَ تدركُ كُلَّ ما أقولُهُ لَكَ"

يتراجعُ خطواتٍ إلى الخلفِ، وهُوَ يردِّدُ تعويذةً مَا، وبقوةٍ ثُمَّ يعودُ، ويردِّدُها؟!!

خطواتٌ بسيطةُ، ويصلُونَ جميعًا لبابِ المغارةِ، وتبدأُ تفاصيلُ المكانِ تظهرُ شيئًا فشيئًا، حَتَّى انتبهوا إلى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يجلسُ بجوارِ بابِ (مغارةِ دانيال)، ولَكِنْ ظَنُّوا فِي أَوَّلِ الأمرِ أَنَّهم مِنْ مُرِيدِي المكانِ الَّذِيْنَ يسعَونَ وراءَ السِّحْرِ، حَيْثُ يُعَدُّ المكانُ مدخلَ المغارةِ لعلومِ السِّحْرِ بمِصْرَ، ويتصلُ بالمغربِ.

"خالد" في خوف:

-"هُنَاكَ مَنْ يجلسُ بجوارِ البابِ، مَنْ يكونُونَ إذًا؟!"

"فارس" وهو ينظرُ لأبيه:

-"أَبِي هَلْ هؤلاءِ مِنْ الَّذِيْنَ ينتظرُونَ فتحَ بابِ الكهفِ؟!"

يبتسمُ ابتسامةً غامضةً، ويقولُ:

-"لا يا فارس، ستعرفُ حِيْنَ نصلُ".

*****

(١٥)

عندما اقتربُوا أكثرَ زادَ اندهاشُهم، فَمَنْ يجلسُونَ بجوارِ الكهفِ هُنَّ فتياتٌ في العِقْدِ الثَّانِي مِنْ أعمارِهُنَّ.

كان وَالِدُ "فارس" يعرفُ مَنْ هُمْ، فقد أخبرَهُ خادمُهُ مِن الجِنِّ، ولَكِنَّ الصعبَ فعلًا: كيفَ تستطيعانِ أُخْتَا "هبة" دخولَ المكانِ، وهذا هو ما أقلقَ ذَلِكَ الرَّجُلُ العجوزُ عدمَ المعرفةِ تَعْنِي لَدَى الجِنِّ الضعفَ، فَمَنْ أدخلَهم أَقْوَى مِنْ خادمِهِ.

هُمَا الآنَ على بُعْدِ خطواتٍ مِنْ "جميلة" و"كارما".

يقفُ "أحمد" في حيرةٍ تَامَّةٍ، وقد زاغتْ عَيْنَاهُ، وبدأتِ الدموعُ تنزلُ مِنْهُ دُونَ أنْ يشعرَ، تذوبُ الكلماتُ:

-"مَنْ تكُونِينَ؟!، هل أَنْتِ هبة؟!"

تقاطعُهُ "كارما":

-"مَنْ أَنْتَ، وكيفَ عرفتَ هبة؟!"

"أحمد" وقلبُهُ يرقصُ فرحًا:

-"إذًا هي هبة، وأنا لا أحلمُ، الحمدُ للهِ أنَّكِ بخيرٍ، مُنْذُ آخرُ مَرَّةٍ ودَّعْتُكِ فيها تخيَّلتُ أنَّ أرضَ النَّبِيِّ دانيالِ ابتلعتْكِ، يومَا اختفيتِ مِنْ أَمَامِي؟!"

"أحمد" يكملُ حديثَهُ:

-"وهِيَ أَمَامَكِ الآنَ"

"جميلة" ترفعُ إصبعَها معترضةً:

-"أنا لستُ "هبة"؛ أنا أختُها جميلة"

وتوجّهُ حديثَها نَحْوَ "كارما":

-"وأحمد هو الشابُ الَّذِي صرخَ باسمِ "هبة"عَلِيَّ مُنْذُ أيامٍ في شارعِ النَّبِيَ دانيال؛ حينَها ركبتُ التاكسي؛ وهربتُ؟!"

"أحمد" ينهارُ كبيتٍ يتهدَّمُ:

-"أَلَنْ تعودَ "هبة"؛ ولماذا أَنْتُمَا هُنَا؛ وماذا تفعلانِ، وكيف وصلتُما إلى هُنَا؟!"

طوفانٌ جارفٌ يغرقُ "أحمد" في حزنٍ دفينٍ!!

"جميلة" في حيرةٍ:

-"نَحْنُ مِثْلُكَ لا نعرفُ شيئًا؟!"

"خالد" في لهجةٍ تفوحُ بالشكِّ:

-"أنتما لديكما الكثيرُ؛ أمَّا أنا لا أعرفُ سببَ حُضُورِي؟!"

وَالِدُ "فارس":

-"خالد لا تخفْ؛ ستخرجُ مِنْ هُنَا سليمًا"

ويوجّهُ نظرَهُ نحو "كارما":

-"ولَكِنْ لِي سؤالٌ يا جميلة؛ ما الَّذِي أَتَى بِكِ هُنَا؟!"

كادتْ "كارما" تتكلَّمُ؛ لولا نظرتْ "جميلة" لها.

وِالِدُ "فارس" يتفحَّصُ ملامحَ وجهِها:
-"مَا بِكِ يا جميلةُ؟!؛ أخبِرِينِي الحقيقةَ"
"جميلة" في ضيقٍ:
-"عذرًا؛ فهَذَا لَيْسَ مِنْ شأنِكَ"
"فارس" مهدئًا للمعركةِ:
-"وَالِدِي يريدُ أنْ يطمئنَ عَلَيكُمَا"
ريحٌ عاتيةٌ تجتاحُ المكانَ، وضوءٌ قَوِيٌّ يملأُ المكانَ مِنْ حَوْلِهم، كُلُّ هَذَا مع بدءِ فتحِ بابِ المغارةِ.

*****

كان شارعُ "النَّبِيّ دانيال" مُنْذُ الثامنةِ مساءً أصبحَ مظلمًا؛ حَيْثُ كشافاتِ الإضاءةِ لا تعملُ، حَتَّى المحلاتِ مغلقةٌ؛ لأنَّ طُلِبَ منها أنْ تغلقَ في الثامنةِ؟!
وبدأَ العُمَّالُ في تنفيذِ ما طُلِبَ مِنْهم، بحفرِ الأرضِ بالثلثِ الأخيرِ مِن الشارعِ حَوْلَ نقطةٍ وُضِعَتْ لهم، وكان "السير عدن" يقفُ بالقُرْبِ منهم يراقبُ ما يقومُونَ به؛ حَيْثُ أمرَهم بَعْدَ إزالةِ الجزءِ الأوَّلِ مِنْ سطحِ الأرضِ، وهو: الأسفلتُ؛ يكونُ الحفرُ بحذرٍ ورفقٍ؛ لذَلِكَ بَعْدَ مرورِ أكثرَ مِنْ سَاعَتَينِ مِن العملِ؛ بدأَ الأمرُ يسيرُ ببطءٍ بَعْدَ إزالةِ سطحِ الأرضِ.
كان "عدن" قد بعثَ عُضْوِينِ مِنْ فريقِ عملِهِ لداخلِ السردابِ بأجهزةٍ دقيقةٍ يمكنُها الإرسالُ والاستقبالُ عَنْ طريقِ القمرِ الصِّنَاعِي في أصعبِ الظروفِ، وخَاصَّةً سكانُ الأماكنِ البعيدةِ والنائيةِ قد يلجؤُونَ إلى

استخدامِ الإنترنتِ المعتمدِ على الأقمارِ الصناعيَّةِ، وخَاَّصة أنَّهُ يريدُ مراقبةَ أمرِ التابوتِ مِن الأسفلِ خلالَ الحفرِ؛ وإرسالَ تقريرٍ لَهُ عَنْ وضعِ التمثالِ في حالِ حدوثِ أمرٍ طارئٍ.

استمَرَّ العُمَّالُ في مواصلةِ الحفرِ، حَتَّى الساعة الثانية صباحًا؛ ظهرَ لهم بوادرُ وجودِ التابوتِ؛ فأمرَهم بالتوقُّفِ عَن الحفرِ بالآلاتِ، وإزاحةِ الترابِ بأيديهم؛ حَتَّى يكونَ التابوتُ جاهزًا للخروجِ دُونَ تلفٍ.

ومَا إنْ ظهرَ التابوتُ بشكلٍ كاملٍ؛ بدأتِ الأرضُ بالكاملِ تغورُ حَتَّى اهتَزَّ العُمَّالُ؛ و لَكنَّهم خَشَوا أنْ تكونَ لعنةً تصيبُ مَنْ يقتربُ مِن التابوتِ أو يحاولَ إخراجَهُ؛ لذَلِكَ لاذُوا بالفرارِ!!

حاولَ أنْ يوقفَهم؛ لَكِنَّ الخوفَ سَيْطَرَ عليهم؛ ولَمْ يستجيبُوا؛ حاولَ التواصُّلَ مَعَ أعضاءِ فريقِهِ بالأسفلِ، لَكِنْ دُونَ جَدْوَى!!

هُوَ في حيرةٍ مِنْ أمرِهِ؟!

وإذَا بالأرضِ تغورُ مَرَّةً أخرى وتَهْوِي بِهِ إلى الأسفلِ، وهُوَ يَرَى أمامَ عَينِيه، بأَنَّ التابوتَ يهبطُ إلى الأسفلِ بشكلٍ مستقيمٍ، كأَنَّ ذَلِكَ السببَ في أَنَّ الأرضَ تغورُ، وهو يحاولُ إنقاذَ نَفْسَهُ بالتمسُّكِ بأيّ شيءٍ بالأعلى؛ ولَكنَّهُ يسقطُ فوقَ التابوتِ، كان التابوتُ يهبطُ بسرعةٍ مِثْلُ المصعدِ الكَهْرَبَائِي؛ ليأخذَهُ مَعَهُ إلى العَالَمِ السُّفْلِي تَحْتَ الأرضِ، وقد وَقَعَ على بُعْدِ مئةِ مترٍ مِنْ (مغارة دانيال)، وفي تلك اللحظة بدأتِ المغارةُ تفتحُ أبوابَها، وتزامنَ مَعَ ذَلِكَ هبوبُ ريحٍ عاتيةٍ تجتاحُ المكانَ، وضوءٌ قَوِيٌّ يملأُ المكانَ مِنْ حَوْلِهم!!، سقط هُوَ على الأرضِ بجوارِ التابوتِ؛ ولَمْ يصبْهُ

مكروهٌ، يأخذُ نَفَسًا عميقًا ثُمَّ يهدأُ، ليقفَ، ويلتفُّ حَوْلَ التابوتِ، فيجدُهُ سليمًا؟!!

يلتفتُ إلى المغارةِ، وإلى أُولَئِكَ الَّذِيْنَ يقفُونَ حَوْلَهُ، ثُمَّ لاحظَ أَنَّهُ يقفُ على أنقاضِ ذَلِكَ السردابِ، يفحصُ بعِيْنِيهِ ما يقفُ عليه، ليَرَى رأسًا تسيلُ منها الدماءُ، لسانُهُ تقطرُ المرارةُ مِنْهُ:

-"إنَّهم رِجَالِي"

*****

كان هُنَاكَ مَنْ يراقبُ عَنْ بُعْدٍ ما يحدثُ أثناء الحفرِ، فقد كَلَّفَ مسيو "جاك" المُقَدِّمَ "نبيل سراج" بمتابعةِ الأمرِ، وإبلاغِهِ بتطوراتِ الموقفِ أَوَّلًا بأولٍ، يرفعُ هاتفَهُ، ويتصلُ بِهِ:

-"مسيو جاك الأرضُ تهاوتْ، وعُمَّالُ الحفرِ لاذُوا بالفرارِ، أمَّا "السير عدن" سقطَ بتِلْكَ الحفرةِ بَعْدَ ما ظهرَ التابوتُ، وكانَ قريبًا مِنْ إخراجِهِ، والآنَ لَمْ يعدْ لهم أثرٌ؟!، الأنقاضُ تملأُ الحفرةَ الَّتِي أصبحتْ كبيرةً، ولا يُعقلُ بأَنَّهُ مازالَ حَيًّا؟!"

"جاك" في صرامةٍ:

-"نطقتَ اسمَ "السير" صحيحًا بَعْدَ أنْ ماتَ؟!، حاولْ أنْ ترفعَ تِلْكَ الأنقاضَ أو ابحثْ فيها، استخدمْ كُلَّ رجالِكِ، حَتَّى نتمكَّنَ مِنْ إخراجِ التابوتِ"

المُقَدِّمُ "نبيل":

-"المكانُ خطرٌ، يمكنُ أنْ يتهاوَى مَرَّةً ثانيةً"

"جاك":

-"المكانُ تَهَاوَى بالفعلِ، والأنقاضُ تملأُ الحفرةَ، لا تقلقْ، لَنْ يحدثَ أيُّ تطوراتٍ أخرى، فما أسفلُ الأرضِ سردابٌ، ولَيْسَ المسرحُ الرُّومَانِي مَثَلًا، المهمُ الآنَ الإسراعُ، لأنَّ الشمسَ اقتربتْ مِن الشروقِ"

"نبيل": -"تمام"

"جاك" يرفع إصبعه محذرًا:

-"لا تَتَّخِذْ أيَّ خطوةٍ دُونَ الرجوعِ لِي، وارفعِ الأنقاضَ يدويًا، فَلَا تَأْتِ بالمعداتِ، ويمكنُكَ الاستعانةُ بالمعداتِ الَّتِي كانَ يَنْوِي استخدامَها السير عدن"

"نبيل":

-"لَكِنْ ما تقولُهُ يحتاجُ لوقتٍ أكثرَ،وسيطلعُ النهارُ، ونَحْنُ نعملُ؟"!!

"جاك" وقد احمَرَّ وَجْهُهُ مِن الفرحةِ:

-"أسرِعُوا ،حَتَّى نتمكَّنَ مِنْ إخراجِ التابوتِ بأيِّ شكلٍ، ولكم مِنِّي مكافأةٌ كبيرةٌ، بالإضافةِ إلى ما اتفقنا عليه مِنْ مالٍ، حَيْثُ لا نريدُ أَنْ تشرقَ الشمسُ، إلَّا والتابوتُ مَعَنَا، وحينُها لا يفرقُ معنا أنَّنَا ونَحْنُ نعملُ هبطتِ الأرضُ، أمرٌ عَادِيٌّ، وحدثَ أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ، والبلديَّةُ أَوَّلُ مَنْ تأمرُ، بأَنْ تُرْدَمُ الحفرةُ، وتُسفلت الأرضُ،لأنَّ معروفًا لديهم أنَّ كُلَّ تلك المناطقِ مبنيةٌ على مدينةِ الإسكندرِ القديمةِ، وهُمْ غيرُ مَعْنِيينِ بالأمرِ، نفِّذْ حالًا"

"نبيل" يَهِزُّ رأسَهُ بالموافقةِ.

*****

أخذَ المُقَدّمُ "نبيل" رِجَالَهُ، وتحرَّكَ في اتجاهِ الحفرةِ، وأمرَهم بنزولِ ثلاثةٍ مِنْهم بَهَا، ووضعَ الحجارةَ الصغيرةَ داخلَ شيكارةٍ مصنوعةٍ مِن الألياف، وربطَها بالحبلِ، وهُمْ بالأعلى يقومُونَ بالرَّفْعِ، وإلقاءِ الحجارةِ بعيدًا عَن الحفرةِ، حَتَّى يتضحَ لهم التابوتُ أوَّلًا سليمًا أَمْ ماذا حَدَثَ لَهُ؟!

استمَرُّوا في العملِ حَتَّى أنَّهم فرغُوا مِن الحجارةِ الَّتِي يمكنُ حملُها بالشيكارةِ، وجدُوا أنفسَهم أمامَ عِدَّةِ قطعٍ حجريَّةٍ لا يمكنُ حملُها أوَّلًا، ثُمَّ أنَّهم يرَونَ أنَّهم اقتربُوا مِنْ أرضيةِ السردابِ، ولا يوجدُ أثرٌ للتابوتِ، و لا ذَلِكَ "السير عدن"؟!، وهُنَاكَ سِرٌّ في الأمرِ، لذَلِكَ تسلَّقَ الرِّجَالُ الجدارَ مِنْ خلالِ الحبالِ، لتعريفِ المُقَدّمِ بالوضعِ في الأسفلِ، والخروجِ قَبْلَ حدوثِ أيِّ مكروهٍ لهم.

المُقَدّمُ "نبيل":

-"ماذا بأسفلِ يا رجال؟!"

أحدُهم يَرُدُّ:

-"لا شيءَ سيدي، كما يتضحُ لَكَ، اقتربْنا مِنْ أرضيةِ السردابِ، ولا يوجدُ أثرٌ لذَلِكَ الرَّجُلِ، ولا حَتَّى التابوتِ، ولا حَتَّى حُطَامٍ مِنْهُ، وخَاصَّةً أنَّهُ مِن الزُّجَاجِ، ولو كان تَحَطَّمَ، لعَكَسَ الضوءَ المُوَجَّهَ لَهُ مَرَّةً أخرى"

المُقَدّمُ "نبيل" يصرخُ:

-"أأَنْتَ متأكِّدٌ مِمَّا تقولُ؟!"

الرَّجُلُ في ثباتِ الجبالِ:

-"سيدي الأمرُ واضحٌ مِنْ أعلى كما قلتُ لَكَ؛ انظرْ سيدي؛ وستتأكَّدُ مِمَّا أقولُ"

يصمتُ برهةً مِن الزمنِ:

-"ما رأيكم إذًا؟"

الرَّجُلُ وقد ناله التعبُ والإرهاقُ:

-مِن الأفضلِ أنْ نعيدَ تِلْكَ الأحجارِ بالأسفلِ مَرَّةً أخرى؛ حَتَّى لا ينكشفَ الأمرُ؛ لأنَّ الوقتَ نهارٌ، ويجبُ أنْ يبدُو الأمرَ طبيعيًا: تغييرُ ماسورةِ مياهٍ؛ ولَيْسَ سردابٌ أمامَ الجميع"

المُقَدِّمُ "نبيل":

-إذًا أبلغْ ذَلِكَ لـ"جاك" قَبْلَ أنْ نبدأَ؛ حَتَّى لا يزعجَنا بكلامِهِ عديمِ الفائدةِ"

*****

بابُ المغارةِ يُفتح شيئًا فشيئًا، هَكَذَا ظَلَّ لمدة (٣٠) دقيقةً حَتَّى انفتحَ بالكاملِ، ضوءٌ كثيفٌ يخرجُ مِنْهُ ريحٌ عاتيةٌ تَمُرُّ مِنْهُ على فتراتٍ، كانت في تِلْكَ الأثناءِ "جميلة" قد اختفتْ مِنْ أمامِها روحُ "هبة"؛ بَلْ شعرتْ بأنَّها تُوَاجِهُ الموتَ وَحْدَها؛ لَيْسَتْ هِيَ فَحَسْبَ؛ بَلْ "كارما"؟!

شعرَ كُلُّ المَوْجُودِينَ بشبحِ الموتِ يلتفُّ حَوْلَهم، ومِن الغريبُ ظهورُ الذعرِ على وَالِدِ "فارس"؛ مِمَّا جعلَ ابنُهُ يسألُهُ:

-"ماذا بِكَ يا أَبِي؛ كنتُ أظُنُّ الأمرَ سهلًا عَلَيكِ؟!"

يَرُدُّ على ابنه:

-"ما أَخْشَاهُ هو: تِلْكَ الفتياتُ ما الَّذِي أَتَى بِهِم هُنَا، وأكيد الخادمُ الَّذِي أحضرهُنَّ مِن الجِنِّ أَقْوَى مِن الخادمِ الَّذِي مَعِي"

"فارس" في دهشة:

-"كيفَ عرفتَ ذَلِكَ؟!"

ينظرُ لَهُ في خوف :

-"عندما يعجزُ خَادِمِي عَنْ معرفةِ مَنْ أَتَى بهم للمغارةِ، فهُنَاكَ خادمٌ مِنْ الجِنِّ أَقْوَى مِنْهُ، لذَلِكَ نَحْنُ يمكنُ أنْ نواجِهَ أخطارًا لَمْ تخطرْ لِي ببالٍ؟!"

لَمْ ينتهِ مِنْ كلامِهِ، وإذَا بصوتِ انفجارٍ يَدَوِيّ، فَزَعُوا عندما سمعُوا ذَلِكَ الصوتَ يُدَوِّي في المكانِ، لينظرُوا جميعًا في اتجاهِ الصوتِ، حَيْثُ هبطَ صندوقٌ زُجَاجِيٌّ مِنْ أعلى، ورَجُلٌ يجلسُ فَوْقَهُ، ليَرَوا الرَّجُلَ ينزلُ مِنْ عَلِيهِ على الأرضِ، لَمْ يجرؤْ أحدٌ على التحرُّكِ في اتجاهِ ذَلِكَ الصندوقِ أو الرَّجُلِ!!

بابُ المغارةِ أصبحَ مفتوحًا، صاحبُ السلطةِ هُنَا خادمُ المغارةِ، ولِذَا فَقَدَ وَالِدُ "فارس" قدرةَ الاتصالَ مَعَ خادمِهِ، مِمَّا أفقدَهُ السيطرةُ على "حازم"؛ ليستعيدَ وَعْيَهُ وقدرتَهُ على الإدراكِ، ويظهرُ ذَلِكَ عَلِيهِ حَيْثُ لأَوَّلَ مَرَّةٍ يرى المغارةَ، لذَلِكَ فَزِعَ مِنْ هولِ الموقفِ، و يتراجعُ خطواتٍ للخلفِ.

"أحمد" ينظرُ لـ"فارس" بنظرةِ لومٍ، يقولُ:

-"نَحْنُ إخوةٌ وأصدقاءُ مُنْذُ أعوامٍ طويلةٍ، لماذا أخفيتَ أنَّ وَالِدَكَ ساحرٌ، ويعلمُ ما حَدَثَ لحبيبتي، وتتركُني أصارعُ الكوابيسَ كُلَّ يومٍ؟!"

"فارس" في لهجة صادقة:

-"أَخِي أنا لَمْ أردْ دخولَكَ تِلْكَ الدَّوَامَةِ، وأنا لا أحبُ أعمالَ السِّحْرِ بشكلٍ عَامٍّ"

"خالد" مهدئًا لسخونةِ الحوارِ:

-"لا تغضب يا "أحمد"، وأنا رغمَ معرفتي القليلةِ بـ"فارس" أقول: هو كان خائفًا عَلَيكَ فعلًا، وأَنْتَ رأيتَ بنفسكَ الآنَ الأخطارَ التي نواجهها؟!" وأحمدُ اللهَ على أنَّ والدَ "فارس" أنقذَني مِنْ "حازم" الذي كنتُ أظنُّهُ صَدِيقِي، وفي الحقيقة كانِ سيقدِّمُني قربانًا؟!

"حازم" في تعالٍ عليهم:

-"مازلتُ أستطيعُ أنْ أحصلَ على ما أريدُ دُونَ الحاجةِ إليكُمْ، كان الجِنُّ يريدُ دماءً، ليوصِّلني إلى ذَلِكَ البابِ، وقد وصلتُ إلى هُنَا بفضلكم شكرًا" ثُمَّ يجري، ويدخلُ إلى المغارةِ، وتَهِبُّ ريحٌ مِنْ جديدٍ، فَلَا يظهرُ أَمَامَهم؟!

ينادي عليه والدُ "فارس":

-"تعالَ إلى هُنَا يا "حازم"، فبدُونِ طعامٍ ستموتُ داخلَ المغارةِ حاااااازم".

*****

يأتي "السير عدن" إليهم، كان خائفًا، ولَكِنْ عندما رأى عدمَ اهتمامِهم بِهِ، اطمئن، وهو يحاولُ أنْ يفهمَ ماذا يجري؟!، ولَكِنَّ هبوبَ تِلْكَ الريح منعتْهُ مِن الكلامِ، لينظرَ له والدُ "فارس"، ويقولُ:

-"أَهَذَا تابوتُ الإسكندرِ الأكبرِ؟!"

يهُزُّ "السير عدن" رَأْسَهُ بـ"نعم"، ولَكِنْ يتعجَّبُ:

-"كيفَ عرفتَ ذَلكَ؟!"

وَالِدُ "فارس" يبتسمُ:

-"لا يهِمُّ كيفَ، ولَكِنَّهُ لَنْ يخرجَ مِنْ هُنَا إلَّا في موعدِهِ؟!، المهمُ نَحْنُ فقدَنا القدرةَ على الخروجِ، وننتظرُ مَا يخرجُنا؟!"

"فارس" في ذهولٍ:

-"ماذا تقولُ يا أَبِي؟!"

وَالِدُهُ في خوفٍ:

-"لَمْ أقلْ لَكَ فقدْنَا قدرةَ الاتصالِ بالخادمِ، فكيفَ نخرجُ؟!"

تهبُ ريحٌ قويَّةٌ جِدًّا مِنْ داخلِ الكهفِ، ويتوهجُّ الضوءُ مِنْهُ، حَتَّى أصبحَ الضوءُ شديدَ الاحمرارِ، وتخرجُ مِنْ وسطِه فتاةٌ، وحِينَ رآها الجميعُ، فزعُوا منها رغمَ جمالِها، واهتَزَّ الجميعُ مُتَسَائِلِينَ:

-"مَنْ تكونُ يَا تُرَى؟!"

إلَّا "جميلة" جرتْ عليها، وارتمتْ في حضنِها!!

إنَّها "هبة"، لِذَا ضَمَّتْها هي الأخرى، أَمَّا "كارما" فقدتِ الوَعْيَ، وتسقطُ على الأرضِ، إلَّا أنَّ "هبة" تشيرُ باصبعِها إلى "كارما" قَبْلَ أنْ تلمسَ الأرضَ، لتصبحَ، وكأَنَّها تطيرُ في الهواءِ ثُمَّ تجعلُها تجلسُ على الأرضِ برفقٍ، يندهشُ "خالد" و"فارس"، بينما يَخْشَاها وَالِدُ "فارس" بشدةٍ أَمَّا "أحمد" فينظرُ لها في تعجُّبٍ!!

"أحمد" يخاطبُ نفسَهُ في فرحةٍ عارمةٍ:

-"هي هي فعلًا، ولَكِنَّها تغيَّرَتْ، لقد ازدادتْ جمالًا إلى جمالِها!!"

ينطقُ لسانَهُ بَعْدَ أن انفَكَّتْ عقدتُهُ:

-"هبة هبة أَنْتَ حَيَّة؟!"

تنظرُ له نظرةً لا يفهمُها، فقد كانتْ نظرةً تَحْمِلُ البغضَ، والكرهَ، ومزيجًا مِن الألمِ والقوةِ، تقولُ:

-"ماذا أَتَى بِكَ إلى هُنَا يا أحمد، لَمْ أدعُوكَ لتأْتِي؟!"

نزلَ الكلامُ على" أحمد" كالصاعقةِ، فلَمْ يتوقَّعْ منها هَذَا أبدًا؟!

"أحمد" في ذهولٍ:

-"أبَعْدُ كُلِّ هذا الغيابِ تقُولِينَ هذا؟!، فأنا الَّذِي أحلمُ برؤيتِكِ طوالَ الثلاثِ سنواتِ الماضيةِ؟!"

"هبة" في ضيقٍ:

-"أَوَّلًا أنا لَمْ أَطلبْ مِنْكَ الانتظارَ طوالَ ثلاثِ سنواتٍ، ولَمْ أطلبْ مِنْكَ الحضورَ اليومَ، وهذا ما أعْنِيهِ بكَلَامِي"

ثُمَّ تنظرُ للجميعِ قائلةً:

-"أَمَّا أَنْتُم ما الَّذِي أتى بكم إلى هُنَا، أهُنَاكَ أحدٌ يحبُ دخولَ المغارةِ، لتَعَلُّمِ السِّحْرِ مِثْلَ الرَّجُلِ الَّذِي كانَ مَعَكم ومَاتَ، قَبْلَ أنْ يبدأَ رحلتَهُ داخلَ المغارةِ؟!"

يصمتُ الجميعُ حَتَّى الأنفاسِ حُبست وسكنتِ الصدورَ، تشيرُ بإصبعِها إلى "فارس":

-"أَنْتَ لا تحمِّلْ نَفْسَكَ مَا لا تستطيعُ، ووَالِدُكَ لَنْ ينفعَكَ"

ثُمَّ ترفعُ إصبعَها إلى أعلى، فيطيرُ بالهواءِ!!

وإذا بوَالِدِ "فارس" يحاولُ أنْ يمنعَها، فلَا يستطيعُ، فتقولُ له:
-"لَنْ تستطيعَ أنْ تمنعَني، وأَنْتَ تعلمُ ذَلِكَ، فأنا الآنَ أملكُ قُوًى خارقةً، ويمكنُني أنْ أخرجَكَ مِنْ هُنَا، لَكِنْ بشرطٍ"
و ترفعُهُ هُوَ الآخرُ في الهواءِ بجوارِ ابنِهِ "فارس" قائلةً:
-"شَرْطِي: أنْ تُقْسِمَ لِي على الطاعةِ وتنفيذِ الأمرِ، و إلَّا تهلكَ الآنَ"
وَالِدُ "فارس" يتمتمُ بقَسَمِ الولاءِ والطاعةِ.
وتلتفتُ هي نحو "عدن":
-"وأَنْتَ أيُّها "السير عدن" لَنْ يخرجَ الإسكندرُ ذُو القَرْنَينِ مِنْ هُنَا، ولتعلمْ نَحْنُ مَنْ نقومُ بحمايتِهِ مِنْ أمثالِكَ"
ترفعُ الجميعَ في الهواءِ، وتقولُ لهم:
-"هذه لَيْسَتْ أرضُكم، فَلَا تَأْتَوا هُنَا مَرَّةً أخرى، في المَرَّةِ القادمةِ سوفَ أعاملُكم مِثْلَ اللصوصِ، فهَذِهِ مَمْلَكَتِي، فأنا زوجةُ مَلِكِ الجِنِّ، وتُلْقِي بهم جميعًا بشارعِ النَّبِيّ دانيال"

*****

كانتِ البدايةُ عندما كان "أحمد" يودِّعُني، فإذا بأشخاصٍ تختبيءُ خلفَ جدارِ آخر عمارةٍ بالشارعِ، والَّذِي يتقاطعُ مع شارعِ "المَلِك فؤاد"، كنتُ أنظرُ إليه، وأحاولُ الصراخَ، ولَمْ أستطعْ، حَيْثُ قَامُوا برَشِّ مادةٍ مخدرةٍ على وَجْهِي، جعلتْني أنامُ؟!

في ذَلكَ الوقتِ ظَنَّ "أحمد" بأنَّ اختفاءَهُ بتِلْكِ اللحظةِ مُجَرَّدِ خيالاتٍ، ولَمْ يتصوَّرْ أنَّها اُختطفتْ، ليحدِّثَ نَفْسَهُ بتِلْكِ الكلماتِ: -"غفلتْ عيني أم لا، لا أعرفُ حَيْثُ اختفتْ حبيبتي عَنْ عَيْنِي فجأة؟!"

*****

كانتْ عصابةٌ لاستخراجِ الكنوزِ الأثريَّةِ، وقد طلبَ المشعوِّذُ منهم ذبحَ فتاةٍ عذراءَ على بابِ السردابِ، حَتَّى يمكّنَهم مِنْ معرفةِ أماكنِ كنوزِ الإغريقِ، والَّتِي كانتْ تملأُ مخازنَ المسرحِ الرُّومَانِي، وهُنَاكَ سردابٌ له مدخلٌ مِنْ شارعِ "النَّبِيّ دانيال" يصلُ بِكِ للمسرحِ، وما أنَّ عَزِمَ ذَلكَ الساحرُ على قراءةِ التعويذةِ حَتَّى استفَزَّ الحارسَ الَّذِي هو مُوَكَّلٌ برصدِ تلْكَ الكنوزِ، لأنَّهُ يريدُ أنْ يتخَّطَاهُ بِسِحْرِهِ، ولَكِنْ ما كان يجهلُهُ أنَّ المُوَكَّلَ برصدِ تِلْكِ الكنوزِ هُوَ: مَلَكٌ مِنْ ملوكِ الجِنِّ، ينقلبُ عليهم، ويقتلُهم جميعًا إلَّا الفتاةَ يُعجبُ بِسِحْرِ جمالِها، ويتركُها، ولَكِنَّها تحاولَ أنْ تفهمَ منه، لماذا كانُوا يحاولُونَ قتلَها ،ليَحْكِي لها أمرَ هؤلاءِ اللصوصِ، بأنَّهم يستعينُونَ بالجِنِّ الفاسقِ مِثْلَهم، ليساعدَهم على فعلِ الشَّرِّ، ولذَلكَ هُوَ يطلبُ مِنْهم ما يشتهي، حَتَّى وإنْ كانَ دماءُ الأطفالِ، أو الفتياتُ العَذَارَى، أو حَتَّى أمور أخرى لا يمكن توقُّعُها؟!

تكملُ "هبة" اعترافَها المثيرَ للجدلِ:

-"طلبتُ منْهُ أنَّ أتعلَّمَ ما يَحْمِيني مِنْ مِثْلِ هؤلاءِ اللصوصِ، أخبرَني بأنَّهُ يمكنُ تعلُّمُ فنونِ السِّحْرِ في (مغارة دانيال)، أعجبتْني الفِكْرَةُ، ووافقَ، ولَكِنْ بشرطٍ: أنْ يتزوَّجَني!!".

كانتْ "هبة" قد رفعتْ "جميلة" أختَها إلى الأعلى، و"كارما" ما زالتْ نائمةً؛ لتأخذَهما إلى البيتِ؛ وقد قَصَّتْ عليهما ما حَدَثَ!!

يأتي الصباحُ، ويومٌ جديدٌ تظهرُ فيه الشمسُ بوضوحٍ، والسماءُ صافيةً، ضوءُ الشمسِ يَطُلُّ على تِلْكَ العمارةِ ذاتِ التصميمِ الإيْطَالِي، يضيءُ النورُ غرفةَ "كارما"، وتستيقظُ، وكأنَّ الشمسَ تشرقُ مِنْ غرفتِها!!؛ لترى "جميلة" تجلسُ بجوارِها، وأُمُّها بجانبِها، وقد ارتسمتْ عليهم الابتسامةُ، بمُجَرَّدِ أنْ فتحتْ "كارما" عَيْنِيها:

أُمُّها تقولُ في سعادةٍ:

-"حمدًا للهِ على سلامتِكِ يا كارما!!"

تمت